رواية
معاذ أبو القاسم
ساحرة البحيرة
WH
Willows house

ساحِرة البُحيرة

رواية

اسم الكتاب: ساحِرة البُحيرة

المؤلف: معاذ أبوالقاسم

الترقيم الدولي: 978-887-3766-38-3

الناشر: دار منشورات ويلوز هاوس

للتواصل: 302 302 927 211+

العنوان: جمهورية جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران.

ايميل الدار: willowshouse3@gmail.com

ايميل المؤلف: Muaaz.abuelgasim96@gmail.com

جميع حقوق طبع ونشر هذا الكتاب محفوظة لدى دار منشورات ويلوز هاوس والمؤلف، وأي محاولة لطباعة الكتاب بأي شكل من الأشكال دون الرجوع إلى الدار والمؤلف يعرض صاحبه للمسائلة القانونية.

إلى روح جدي (والد أُمي):

محمد أحمد أبوالقاسم، الصياد الأول في المنطقة.

الغزالة ترعى وحيدة في الحقل

(١)

مساءً عاد "**مُهند**" -البالغ من العُمر سبعة عشر عاماً- وهو يحمل بندق الصيد على كتفه، ويُمسك بيده كيساً ممتلئاً بطيور "**القمري**" التي قام باصطيادها. عند دخوله للبيت نظرت له **والدته** بتوجس بعدما رأت كمية الطيور التي يحملها، وقالت له بعصبية:

- أين كُنت؟
- في المشاريع الزراعية.
- المشاريع الزراعية قد هجرها الطير وذهب للبُحيرة، ولا يُمكن أن تجد فيها هذا العدد الكبير فلا تكذب عليّ، قُل لي بصدق أين كُنت؟
- أقسم لكِ أنني لم أذهب إلى البُحيرة، وهذه الطيور وجدتها مُصادفة في طريقي. أيضاً، لقد قطعتُ لكِ وعداً بعدم الذهاب إليها، ولن أخلفه.

حينها هدأت مخاوف الأم وإن كانتْ ما تزال متوجسة، ثم رقَّ صوتها -وخرج ممتلئاً حناناً وعطفاً- وهي تطلب منه الجلوس كي تأتي له بالغداء. لم يجلس كما طلبتْ منه، بل خرج إلى فناء

البيت وبدأ ينتف ريش الطيور كي تكون جاهزة للشواء. وهو منهمك في عمله جال بخاطره عمه "**عبد القادر**" الذي رحل عنهم قبل شهرين، عمه الذي حلَّ محل والده.

لقد أخبرته **والدته** بأن **والده** توفي ظمئاً في الصحراء عندما ضل الطريق الذي يؤدي للقرية، وقتها هو كان صغيراً لا يستطيع النُطق أو تمييز الأشياء. وفيما بعد تبناه **عمه** وأصبح لصيقاً به، **عمه** الذي لا يعرف شيئاً غير الصيد، قد نقل هوسه هذا لابن أخيه؛ فعلَّمه طريقة الصيد، ودربه على التصويب، وكيف يتجنب الخطأ. ومثل نقش الحروف على الورق الأبيض كان صوت **عمه** قد حُفِر داخل رأسه ويتردد صداهُ في أُذنه كلما أمسك بندقيته وحاول التصويب: **"قبل كل شيء عليك أن تتأكد من أن الفريسة داخل مدى الطلقة، لأن هذا يُعد سبباً رئيسياً في أن يجعلك عُرضة للخطأ. ثانياً عليك أن تُثبت البندق على كتفك جيداً، وأن تكتم أنفاسك لثواني، وتُحاول بقدر الإمكان جعل يديك ثابتتين حتى لا تُفقدك حركتهما التصويب الجيد"**.

احتاج إلى الكثير من التمارين كي يتقن هذا الأمر. ويتذكر جيداً أول مرة حاول فيها استخدام بندق الصيد أنها قد تسببتْ برميه، فعندما وضعها على كتفه، لم يثبتها جيداً، ومدفوعاً بالخوف قام بالضغط على الزناد... فانطلقت القذيفة، وارتدَّت فيه البندق وأوقعته على الأرض، مُسببة له ألماً في كتفه استمر لثلاثة أيام متتالية.

بكى بصمت -بينما ينتف ريش الطيور- على عمه وأبيه ومُدربه، ولعن "**ساحِرة**" البُحيرة التي حرمته من رؤيته إلى الأبد.

(٢)

قبل أُفول الشمس بقليل، كان "**عبد القادر**" يقف على شاطئ البُحيرة حاملاً بندقية الصيد، ينوي النزول إلى الماء حتى يتمكن من الوصول إلى سرب القمري -الذي ظهر قبل قليل رِفقة بقية أسراب الطيور الأُخرى في الجُزيرة الوحيدة الواقِعة

وسط البُحيرة والمُحاطة بأزهار اللوتس ونباتات الطرور [1]-، ضارباً بكل التحذيرات التي يحفظها عن ظهر قلب عرض الحائط.

لقد جاهد نفسه كثيراً ومنعها من الوقوع في هذا الجُرم القاتل؛ لكن رؤية الطيور التي يعشق لحمها تمرح هكذا جعله يتخلى عن حذره المُعتاد. نزع جلابيته وسرواله الطويل عنه، وبقيَ بملابسه الداخلية ثُم دخل إلى لماء ببطء، غاصتْ رجلاه في الطين الرطب دون أن يصدر عنهما صوتاً؛ إذ يُمكن للضجيج الذي تُحدثه حركته داخل الماء أن يفزع الطيور، وتطير مُبتعدة عنه عندما تستشعر وجوده.

عبد القادر رجل في السابعة والثلاثين من عمره، أسمر اللون، فارع الطول، عريض المنكبين، وله عنمه صغيرة سوداء تتدلى على خده الأيسر. عُرف عنه عِشقه وهوسه الشديد بالصيد، وقد كلَّفه هذا العِشق كثيراً؛ إذ عادةً ما يأتي إلى البيت مساءً أو ليلاً وهو ينزف جراء جُرح أحدثته أفرُع الأشجار المليئة بالشوك،

١ الطرور نبتة نيلية تستخدم في إشعال النار بعد تجفيفها

أو ينتج عن وقوع رجليه داخل إحدى الشقوق، ومرَّات كثيرة تعرَّض فيها للدغ الثعابين والعقارب. وخِفية عنه يتناقل أهل القرية حديث مفاده أنه لم يتزوج حتى الآن لأن روحه قد تعلَّقتْ بالصيد أكثر من تعلقها بالبشر، ولذلك فقد شهيته تجاه النساء وعزف عنهن.

توغَّل في البُحيرة وارتفع منسوب الماء، فغمر نصف جسده. هو بدوره انحنى ليجعل الماء يغطي كامل جسده حتى لا يترك فرصة للطيور كي تراه، وأبقى فقط رأسه خارجاً ويده التي تحمل البُندقية. زحف برجليه سريعاً، حتى وصل إلى نباتات الطرور وأزهار اللوتس، ومن خلال الاختباء والاحتماء بها استطاع أن يكون قريباً من القمري. ولَّما علِم أن الطيور قد صارتْ في مدى طلقته توقف، وثبَّت البندق على كتفه، صوَّب نحو أربعة رأى أنهم الأكبر حجماً، و ... دوى صوت القذيفة في فضاء البُحيرة خادِشاً هدوءها المُعتاد. الطيور الغافلة اضطربتْ وأصابها الذُعر من الصوت العالي، طارتْ وهي تصرخ مُخلفةً وراءها مَنَ أصابتهن طلقة الصياد. جرى **عبد القادر** نحو

غنائمه اللواتي بدأن يضربن بأجنحتهن الماء في مُحاولة يائسة منهن للحاق بالسرب، دون أن يقوين على فعل ذلك. سريعاً أمسكهن بين قبضته القوية، وداخل عيونهن رأى الخوف والاستسلام. فرِح بهذا الصيد الثمين، لأن العشاء اليوم سوف يكون لذيذاً. لكنَّ نشوته تبخرَّتْ وأصابه الخرس والذهول عندما التفتَ وراءه مُحاولاً الرجوع إلى الشاطئ، بردتْ أطرافه وسقطتْ منه الطيور والبندقية في الماء، وهو يرى رجلاً عاري الجسد، مفتول العضلات، شعره غزير وطويل يُراقص الرياح، يعترض طريقه. هل هذه هي الساحرة؟ لكنَّ هذا رجل وليس امرأة! فتشجَّع ودقق النظر في ملامح الرجل الغريب التي بدت ملامحه مألوفة له، لكنَّ هذا الشكل المُرعب، والشعر الكثيف... دقق النظر أكثر إلى وجه الرجل، فعرفه؛ إنه **"..."**.

كانت الشمس قد غاب نصفها وتبقى الآخر... الذي هو أيضاً غادر سريعاً تاركاً الظلام ينزل ببطء على كل شيء.

سمع أهل القرية صوت الطلقة آتياً من داخل البُحيرة وبدأوا يصرخون بهلع ويستنفرون أهلها لحماية ابنهم؛ فقد عَلِم

الجميع بأن الذي فعل ذلك هو **عبد القار**؛ ومَنْ غيره يجروء على ذلك! حَمَل كُلٌ منهم سلاحه وجرى نحو البُحيرة، وجدوا ملابسه التي تركها على الشط، لكن لا أثر له.

في ذلك المساء فُقِد **عبد القادر**، وبعد ثلاثة أيام من البحث المتواصل لم يظفروا بأي شيء، فأعلنوا عليه الحداد، وأقاموا له مراسم العزاء. لأن الجميع يعلم أن **الساحِرة** قتلته كما قتلتْ الكثيرين من أبناء القرية الذين لم يعملوا بالنصائح التي تحذِّرهم من الاقتراب من البُحيرة مساءً.

(٣)

مُخيلة أهل القرية تحتفظ بقصة قديمة يتناقلونها جيلاً عن جيل، تحكي عن رجل جاء عابراً يُدعى "**محمد عبد الله**"، كان آتياً من جنوب البِلاد ممتطياً ظهر فرسه، ولأن الفصل كان صيفاً - وقتها- فإن نهاره كان حاراً مُشمساً، وجو الليل ساخن وكاتم. تعاقبتْ عليه خمس ليالٍ بهذا الشكل، وهو يسلك الطريق الصحراوي، لأن الطريق الرئيسي المُحاذي للنيل الأبيض -الذي تسلكه القافلات والمارة- يتمركز قُربه قُطَّاع الطُرق مُختبئين داخل الأشجار الكثيفة، وينهبون كل من يأتي وحيداً، بل قد

يصل الأمر لقتله إن قاوم؛ لذلك فضَّل طريق الصحراء -رغم أنه لا يحمل أي شيء ذا قيمة، ولا يخشى إلا ضياع روحه-، الأمر الذي أدى لنفاد الماء منه، فقاسى هو وفرسه الظمأ الشديد، ولَمَّا اطمأن إلى أنه قد تخطى مكان قُطَّاع الطُرق اتجه صوب النيل. كانت الشمس قد غابتْ واتحل مكانها القمر مُدداً الظُلمة. وقبل أن يصل النيل وجد نفسه يقف على تلة عالية أسفلها رأى بُحيرة.

لم يُصدق أنه وجد الماء بعد أن كاد يهلك، فأعطى فرسه الإشارة كي يُسرع نحو الحياة، وقبل أن يصل ترجل عنه ودخل في الماء كي يطفئ لهيب جسده ويروي ظمأه، ولَمَّا استكان وهدأ قليلاً سمع صوتاً يُشبه وسوسة الذهب والفِضة، فأرهف السمع قليلاً وعرف أن مصدره خلف أشجار السُنط الواقفة على شط البُحيرة، عندها خرج ببطء من الماء، استل سيفه من غِمده، ومشى نحو مصدر الصوت مُمنياً نفسه بأنه سوف يأخذ هذه المجوهرات غنيمة له بعد أن يسلبها من صاحبها، ولا بأس بأن يقتله في سبيل الحصول عليها إن قاومه. وعندما تخطى الأشجار وجد امرأة عارية، بشرتها بيضاء ناعمة -خِلافاً لجميع نساء المنطقة-، كانتْ أثدائها مُمتلئة بارزة، وقد استطاع عن

طريق ضوء القمر رؤية بعض الشُعيرات السوداء الصغيرة تحيط حلماتها الشديدة الاحمرار، كان شعرها مُبعثراً، وتجلس على الأرض تتلاعب بالمحار، فيُصْدِر هذا الصوت. بُهت لرؤية هذا الكائن الذي لم يتوقع وجوده، ودبَّ الخوف في داخله. قامتْ هي من فورها عند رؤيته وحاولت الهجوم عليه، لكنه أشهر سيفه في وجهها فتباطأت قليلاً وبدأت ترجوه بصوت رقيق وحنون قائلةً:

- احملني معك، أرجوك، احملني معك.

لكنه ظل يتراجع إلى أن وصل فرسه، ركبه وغادر مُسرعاً تاركاً المرأة وراءه، فسمع صوتها يُلاحقه وهي تعاتبه:

- أيها التارك عِرضه، أيها التارك عِرضه، أيها الترك عِرضه...

عندما وصل أهله وأخبرهم بما حدث له لم يكن ليُصدقه أحد، لو لم يَبْيَضّ شعر رأسه الأسود من الذُعر والهلع. ومن يومها التصق به اسم: "**التارك عرضو**".

بعد ذلك بعشرات السنين، نشأت قرية "**التارك عرضو**" تخليداً لِذكراه، لأن قصته لفَّت كل البقاع، وتناقلتها الأجيال.

أُقيمت مباني القرية فوق كثيب رملي عالي، شرقها بمسافة تبعُد أربعة كيلومتر تقع البُحيرة، التي يمتلئ شاطئها بأشجار السُنط والهشاب، وبعض الشُجيرات المُتفرقة قائمة في وسطها مكونة جزيرة صغيرة مُحاطة بنبات الطرور وأزهار اللوتس. تمتلئ البُحيرة حد الفيضان في موسم الخريف، ويقل منسوبها -لكنها لا تنحسر- في فصل الصيف.

حاول أهل القرية اصطياد **الساحِرة** وتخليص أنفسهم من شرها، لكن كل مُحاولاتهم بائت بالفشل ولم يستطيعوا النَيْلَ منها. ولما يئسوا من ذلك، ظلَّوا يُحذرون أبناءهم من الاقتراب من البُحيرة مساءً، والاكتفاء بجلب الماء منها في الفترة الصباحية. رغم ذلك فإن البعض كان يُغامر بالذهاب إليها مساءً؛ لأنه في هذا الزمن تحديداً، وكأن **الساحِرة** لها يدٌ في ذلك، فإن البُحيرة تمتلئ بطيور القمري، والوزين، والبجع، في

مشهد بديع يُغري الصيادين بالنزول إلى الماء، مُمنيين أنفسهم بالظفر ببعضها، لكنهم بدل ذلك، يقعون في المصيدة.

(٤)

عندما غابتْ الشمس وأظلمتْ سماء القرية، قام "**حاج حسين**" بتشغيل البابور [٢] الذي يمد القرية بالكهرباء، ومثل مياه مندفعة في أرض منبسطة، بدأت لمبات الإنارة في الإضاءة سريعاً واحدة تلو الأخُرى إلى أن عمَّ الضياء كل القرية.

لم يطب لُمهند الجلوس في المنزل بعد أن تناول طيور القمري التي اصطادها، وفضل الخروج إلى الخلاء كما يفعل دائماً في الليالي المُقمرة. قصد تلة عالية تقع شرق جنوب القرية، وتبعد عنها مسافة ثلاثة كيلومتر. كان البدر يُنير طريقه، ولَّما وصل وجد صديقه "**موسى المجنون**" -الذي يبلغ من العُمر الاثنين وأربعين عاماً- ينتظره. وما أن تبادلا التحايا حتى بادره بالسؤال:

---

٢ مولد كهربائي

- مُهند، كيف يقف هذا القمر بحجمه الكبير في الفراغ هكذا دون أن يسقط؟
- ربما **للساحِرة** يدٌ في هذا الأمر. أجابه ساخِراً.
- لقد صدقتْ، فهي الوحيدة القادرة على ذلك.
- كُنتُ أمزح معك يا صديقي، هي مُجرد **ساحرة**، وجُل ما تستطيع فعله هو اصطياد البشر المساكين.
- إذن أنت مثل بقية سُكان القرية، لا تعرفها.
- وهل تعرفها أنت؟
- نعم فقد رأيتها كثيراً.

حدَّث **مُهند** نفسه: "**يا لسذاجتي، كِدتُ أن أُصدق هذا المجنون**". بعدها تأمل البدر القابع فوقه، وشرد بعيداً مُمنياً نفسه بصيد طيور البجع الكبيرة أو حتى الوزين، ولأنها تكون في البُحيرة فقط فإن اصطيادها يبدو حلماً بعيد المنال بالنسبة إليه. قليلون جداً من استطاعوا التغلب على خوفهم والنزول إلى البُحيرة، ولم يرجع أي منهم، كان آخرهم عمه **عبد القادر**.

عاد إلى الواقع عندما سمع صوت صديقه يقول له -وكأنه قرأ أفكاره-:

- كل الصيادين في قريتنا يمنون أنفسهم صيد طيور البجع أو الوزين، ولا يعلمون أن هذه الطيور تعيش تحت حماية **الساحِرة**؛ لذلك كل من اقترب منها مُحاولاً قتلها اختفى، رغم أن القانون كان واضحاً: "**لا تقتربون من طيوري، وأنا بدوري لن اعترض طريقكم**". لكن البشر سُذج يلهثون دائماً نحو إرضاء شهواتهم، حتى ولو كلفَّهم ذلك حياتهم.
- كيف تعرف ذلك؟ سأله مُستغرباً ومتوجساً.
- لأن **الساحِرة** تُخبرني بذلك.
- تباً للمجانين! قالها بعصبية وقام راجعاً للمنزل.

بقي **موسى المجنون** في مكانه ذاك، ومن حيث يجلس كانت البُحيرة تحته واضحة يضيئها نور البدر، رأى الطيور المختلفة تملأ مياه البُحيرة وتسبح فيها، وفي وسطهم **امرأة** جميلة، بشرتها بيضاء بضة، ذات شعر كثيف، تسبح رفقتهم. كان وحده من يُرفع له الحجاب ليرى هذا المشهد، ووحده من يسمع ضحكات الطيور والساحِرة.

(٥)

صباح اليوم التالي خرج **مُهند** صباحاً يحمل بندقيته على كتفه، واتجه غرباً نحو المشاريع الزراعية، يُمني نفسه بصيدٍ وفير، ويدعو الله في سِره أن ييسر أمره، ويرزقه الكثير من طيور القمري.

وبعد مسيرة ساعة كاملة وصل إلى المشاريع وبدأ يتنقل بينها لعله يظفر بمبتغاه، لكن دون جدوى. لم يرَ طيراً طيلة الفترة الصباحية، وتملَّكه الإحباط. ففي العادة تنتشر الطيور صباحاً ومساءً في هذه البِقاع باحثةً عن الأكل. **"ما الذي حدث يا تُرى؟ هل شُحَّ الأكل الذي تُفضله هو السبب؟ لأن طيور القمري كانتْ تأتي لتلتقط حبات الذُرة الهاربة من آلة الحصاد، والمشاريع قد تمَّ حصادها منذ أكثر من شهرين، وهذه فترة كافية لأن تنتهي فيها كل حبوب الذُرة المُنتشرة بعشوائية في الحقول. لكن مهلاً... هذا لم يكن سبباً لأنها قد اختفت قبل ذلك بكثير. آه، يا للطيور اللعينة!".**

انزعج قليلاً عندما شعر بالإخفاق، وقررت عدم التوقف أو الاستراحة رغم التعب الذي ألمَّ به، وفضَّل البحث أكثر عله

يُصادف سرباً تائهاً مثلما حدث يوم أمس، لكن يبدو أن هذا اليوم لم يكن الحظ حليفه.

انتصف النهار دون أن يظفر بشيء، كانت الشمس فوقه ترسل أشعتها اللاهبة مُصطدمة بفروة رأسه مُسببة له العرق الكثيف وبوادر صداع بدأ ينتشر داخل جمجمته، وهرباً من حرِّها جلس تحت شجرة نيم ظليلة، كان التراب تحتها بارداً. قام بخلع نعاله وقميصه ثم دفن رجليه ويديه داخل التراب، ومدد ظهر العاري عليه كي يُطفئ النار الموقدة بداخله. بعدها غاص في التراب هبَّ عليه نسيم جعله يسترخي ويغرق في النوم سريعاً.

عندما أفاق وجد الوقتُ عصراً، ورأى طيور القمري تحلق فوقه مُتجهة شرقاً صوب البُحيرة، لا يدري من أين أتتْ، إذ رغم المسافات الشاسعة التي تمتد غرب المشاريع والمليئة بأشجار السُنط والهشاب واللعوت إلا أنه لم يُجرب قط الذهاب إليها، ولم يُفكِّر في ذلك أصلاً؛ فهذه الأراضي مجهولة لديه، وكل الذي يعرفه عنها أنها مُمتلئة بالحيوانات المُفترسة مثل: الضِباع

والذئاب، بل وحتى النمور أحياناً تأتي إليها، لذا لم يجرؤ على الاقتراب منها أبداً.

تناول بُندقيته، ثُمَّ عبأها بالذخيرة، ثبتها على كتفه، وبدأ يصوب نحو الطيور مُحاولاً اصطيادها وهي مُحلقة في الأعلى. كانتْ حركتها سريعة ولم يتمكن من التصويب جيداً، فوَّتْ الأُولى، الثانية، الرابعة، والعاشِرة، لأنه لم يتمكَّن من مُجاراة سُرعتها. انزعج من ذلك، وتعرَّق جبينه، وبدأتْ ضربات قلبه تزداد خوفاً من أن يرجع للمنزل خالي الوفاض، وفي قمة توتره أطلق الطلقة الأولى لكنها لم تصب أي واحدة، فأخرجها (الطلقة الفارغة) سريعاً وعبأ بندقيته بالذخيرة من جديد، ثم بدأ يُلاحق طيور القمري مرة أُخرى، هذه المرة استطاع أن يُصوِّب على واحدة، وقد أيقن من أنها قد وقعت في مرماه، ثُمَّ... دوى صوت الطلقة في الفضاء، مرة أُخرى يفشل في إصابتها. "**تباً. تباً. يا للطيور اللعينة!**". بعدها توقف عن مُحاولة اللحاق بها خوفاً من نفاد ذخيرته، وتابعها بنظره ليرى أين ستذهب، وكما توقع، فقد كانت كلها تتجه نحو البُحيرة.

يئس من أن يصطاد واحدة، وبدل أن يذهب نحو القرية اتجه أولاً للتلة العالية التي يجلسان عليها هو وصديقه المجنون، ومن مكانه ذاك رأى البُحيرة تمور بطيور من كل الأنواع؛ البجع، الوزين، الجبركل، القطا، والقمري... **"آه، يا للحسرة! كيف تسرق مِنَّا البُحيرة كل هذا النعيم، ونحنُ مكتوفي الأيدي لا نستطيع فِعل شيء!"**. لم يُطِل وقوفه، فقد شارفتْ الشمس على المغيب، ومشى بخُطىً بطيئة نحو القرية.

(٦)

بعد عدة أيام عندما انتصف الليل دخل غُرباء تحملهم عربة **"لوري"** إلى القرية، غُرباء انتظرهم أهل القرية طويلاً، وقد أضفوا عليهم البهجة والسرور في اليوم التالي، وحلَّقوا بأرواحهم عالياً؛ إذ وصل حيران الشيخ **"أبوقرون"**، بعد انقطاع دام سبعة عشر عاماً.

كان الأمر جديداً على **مهند** ولم يشهد حدثاً مماثلاً له من قبل، وظل طوال ثلاثة أيام مشدوهاً ومفتوناً بما رآه في هذا اليوم. إذ ما أن أشرقت شمس اليوم التالي لوصولهم حتى قام **الدراويش** بإشعال العديد من النيران خارج القرية، تحلَّقوا

حولها وبدأوا يُمررون فوق لهبها الدفوف المصنوعة من الجلد؛ لكي تكون مشدودة أكثر وتصدر صوتاً أعلى وأكثر حِدة وعُمقاً.

وقف **مهند** -مثل كثيرين من شباب القرية- قُرب **الدراويش** وهو يُراقب هذا الأمر، ولَّما انتهوا من شدّ الدفوف انتقل معهم إلى دائرة الرقص. وقف مع البقية مُشكلين دائرة كبيرة تاركين مساحة ضخمة في الوسط، وبعد لحظات دخل فيها خمسة من الرِجال يحملون الدفوف وبدأوا يضربون عليها بقوة بينما البقية يتمايلون على وقع أنغامها وهم يُرددون: **"اللّه، اللّه، اللّه..."**. فيخرج منهم الذِكر في تناغم بديع وساحِر يهز قلوب كل الحاضرين ويُحرك مشاعرهم. وبين الحين والآخر كان يدخل أحد **الدراويش** الواقفين في الخارج إلى الدائرة، ويبدأ الدوران حول نفسه، بينما يشرع يديه في الهواء مثل أجنحة طائر؛ في البدء يكون الدوران بطيئاً، ثم يبدأ يُسرع ويُسرع إلى أن تسمو روحه وتتحرر من سجن الصلصال -الذي يُضَيِّق الخناق عليها-، فتتَّحِد وتذوب في الكون. في هذه الأثناء ينسى الشخص جسده الذي يدور حول نفسه دون هوادة، بينما ترتوي روحه من الأنوار إلى أن تصيبها التخمة، وحينما لا

تستطيع تحمُّل المزيد يُغمى على صاحبها؛ يتوقف الجسد عن الدوران ويرتمي على الأرض ساكناً دون أي حركة.

تساءل **مُهند** مُتعجباً: **"كيف يفعلون ذلك؟"**. فهو لا يستطيع الدوران ثلاث مرات مُتتالية دون أن يدوخ ويقع. أما الأعجب من كل ذلك هو عندما رأى صديقه **موسى المجنون** يدخل إلى دائرة الرقص مُرتدياً جلابية مُرقعة مزركشة الألوان. دخل **موسى** حافياً وتوقف في المنتصف، ضمَّ يديه نحو صدره ثم انحنى للحظات وارتفع، ولا يدري **مُهند** إن كان هذا الانحناء تقديراً لمن يقفون أمامه أم لغيرهم. وكأن **موسى** كان مُتواطئاً مع حاملي الدفوف؛ فما أن دخل حتى بدأوا يضربون عليها بقوة أكبر مُصدرة صوتاً عالياً وأقوى تأثيراً على الوجدان، ذاب فيها **موسى** عِشقاً. فَرَدَ يديه كما لو أنه يود الطيران، رفع رأسه للأعلى وبدأ يدور حول نفسه. مُتشبعاً بالأنغام غاب **موسى** عن الوجود، وكأنه يُراقص ذرات الكون كان يتمايل برشاقة أثناء دورانه. اشتد صوت الطبل قُربه متغلغلاً عميقاً في داخله، وقاده هذا الأمر للدوران والتمايل بصورة أسرع، ولَّما امتلأ بالمشاعر بدأ يصرخ، يصرخ بأعلى صوته ويُتمتم بكلامٍ غير مفهوم، بينما يدور حول نفسه. فقد إحساسه بمن حوله

وشعر بأنه يطير حقاً، بأنه يُلامس الغيوم الصافية الطافية في الأعلى، وبأنه يخترقها ويحلق للأعلى نحو السماء، ثم... وقع مُغمىً عليه.

استولى الذهول على مهند لفترة طويلة وهو يرى هذه الأفاعيل من **الدراويش** ومن صديقه، وألحَّ على ذهنه سؤالاً: **"كيف لموسى أن يفعل ذلك؟"**. إذ يُمكنه أن يتقبل هذا الأمر من **الغُرباء** الذين لا يعرف عنهم شيئاً، لكن أن يبدر من صديقه، فهذا ما لم يستطع أن يستوعبه. **"ما هي قصة هذا الصديق المنطوي على ذاته، الدائم الابتعاد عن أهل القرية، ما الأسرار التي يُخبئها عنا جميعاً، وما هذا الغموض الذي يكتنفه؟"**. فمنذ أن عرفه وهو لا يُكلمهم، ولا يتدخل في شؤونهم، إنما دائم الجلوس والسير وحده، يجوب الخلاء طولاً وعرضاً ولا يرضى بصحبة أحد، والأدهى من كل ذلك هو أنه لا يحمل معه ماءً أو طعاماً أثناء تطوافه هذا، لكنه يعود سالماً دون أن ينال منه الظمأ، وهذا الأمر كان مثار تعجُّب لأهل القرية وإن أخفوه مُظهرين عدم المُبالاة. وقفز سؤال آخر

لذهن مهند: **"لماذا قَبِل بصُحبتي أنا وحدي دون غيري؟ ما الذي رآه فيّ؟ هل أنا مُختلف عن بقية أهل القرية؟"**.

لم يقترب أحدٌ من **موسى**، إنما ظل **الدراويش** يرقصون مُتجاهلين وجوده، وكأن شيئاً لم يحدث، ولم يدر **مهند** بأن هذا الأمر يتكرر كثيراً معهم أينما قرعوا طبولهم. ساوره القلق، وحاول الذهاب إلى صديقه كي يرى ما به، لكنه ما أن دخل لدائرة الرقص حتى تحرك **موسى**، أفاق وبدأ يتلفَّت حوله بذهول وكأنه لا يدري سبباً يجعله ينام في هذه البُقعة، وبعد مُدة وقف بفتور دون أن يقوى على الاستقامة، بدى ذاهلاً غائباً عن الجميع، لم يتزحزح من مكانه، وظلَّ يتمايل مع الأنغام كغُصن تُحركه الرياح فتثنيه يمنة ويُسرى، وشعر بجسده خفيفاً مثل ريشة، مثل ورقة شجر.

من حوله يدوي صوت الطبل، وهمهمة الواقفين: **"الله، الله، الله..."**. ومثل بركان كان يغلي من الدخل كلما رنَّتْ في أُذنه كلمة **"الله"**. ولَّما امتلأ بها كأسُه انفجر وفاض مُغرقاً كل من حوله في حِممه، صهل مثل فهرس جامح عصي عن القيادة

والترويض، وبدأ يقفز هنا وهناك، ثم غرَّد مثل طائر نزق بهلواني، وبسط يديه في الهواء وبدأ يُحركهم مثل فرخ عصفور يتعلَّم الطيران، بعدها شعر بأنه بحر يفيض أنغاماً ومحبة، وسوف يغرق كل الواقفين من حوله، ولأنه كان المُتحكِّم في هذا الفيضان الهادر فقد ظلَّ يلوِّح بيديه -كأنه يدفعُ شيئاً ما- نحو الحشود مُحاولاً التهامهم بمياهه الحاملة للعشق بين أمواجها.

طرباناً، منتشياً، مُمتلئاً بكل هذه المشاعر ظل **موسى** يبتسم، يضحك، يصرخ، وأخيراً بدأ يبكي. وبعد لحظات توقف عن البُكاء، وارتسمت الضحكة من جديد على شِفاهه، بينما لم تتوقف عينيه عن إغراق جبينه بالدمع.

شرع يديه في الهواء وبدأ الدوران من جديد، ينهل من بحر العِشق الذي غرق فيه، غير عابئ بما يحدث حوله.

في نهاية اليوم رحل **الغُرباء** مُتجهين إلى مكانٍ آخر، وعادت الرتابة والهدوء إلى القرية. وحده **مهند** الذي لم يُفارقه الصخب والضجيج، وقد ظلَّتْ تُلاحقه هذه الأحداث لأيام.

(٧)

غربتْ الشمس، وقبل أن تُظْلِم شوارع وبيوت القرية، قام **حاج حسين** بتشغيل البابور الذي يمدّ هذه البُقعة الصغيرة بالضياء. وفي الأُفق بدأ البدر زحفه مُتسلقاً صهوة السماء مُضيئاً الخلاء الشاسع الذي عجز شريان القرية ووريدها عن الوصول إليه.

بعد العِشاء خرج **مُهند** من منزلهم مُتجهاً نحو التلة العالية، مُتأكداً تماماً بأنه سيلتقي بصديقه هُناك، وبالفعل وجده مُستلقياً على ظهره واضعاً يديه خلف رأسه ناظراً للأعلى مُتأملاً الفراغ، وقريباً منه لمح شيئاً ملفوفاً لم يستطع أن يتكهن بماهيته. بادره بالسؤال -الذي كان يشغل تفكيره- قبل أن يلقي عليه التحية:

- كيف استطعت الدوران هكذا في حلقة الدروايش؟

أجابه **موسى** بعدم مبالاة:

- لا أدري. قالها واجترَّ نفساً طويلاً ثُم أضاف: كل ما أعرفه أنني قد امتلأتُ بمشاعر غريبة، مُبهمة، عند سماعي الأصوات النابعة من الدفوف، كانتْ دواخلي

كلها تهتز معها، وكأنها سوف تُعيد تشكيلي من جديد، ولو لم أبدأ بالدوران لأُخفف هذه المشاعر التي اعترتني لفقدتُ حياتي مخنوقاً بها.

- لا أفهم كلامك يا صديقي!

ابتسم **موسى** وهو يقول:

- ما رأيك أن أجعلك تفهم، ولو قليلاً من كلامي؟
- وكيف ستفعل ذلك؟

عندها تناول **موسى** الشيء الملفوف قُربه، وأزال عنه قطعة القماش التي كانتْ تُغطية. أخرج ربابة، وضعها على حِجره وبدأ يضرب على أوتارها. فانساب منها لحناً رقيقاً وجميلاً أطرب مسامع **مهند**، واندهش من الطريقة الماهِرة التي يعزف بها صديقه؛ إذ لأول مرة يراه يفعل هذا الأمر.

في البدء عزف موسى لحناً شعبوياً يُدندن به جميع سُكان القرية ويحفظه صغيرهم قبل كبيرهم، ثُم انتقل إلى ألحان أُخرى لم يسمع بها **مُهند** قبل الآن، لكنها كانت غاية في الرقة والعذوبة، ولأول مرة تُلامس الموسيقى روحه العطشى ويتفاعل معها بهذا الشكل. كان للألحان النابعة من أسلاك

الربابة القدرة على أن تجعل مهند يفقد الإحساس بالمكان والزمن، وأبعد من ذلك فَقَدَ تمييز الخط الفاصل بين الأشياء وصارتْ جميعها واحدة في نظره. ففي البدء أحس بأنه يحلق ويبتعد عن التلة، ابتعد عنها إلى أن تلاشتْ عن أنظاره. ثُم رأى نفسه غيمة سابحة في الفضاء، اندلقتْ مطراً نحو الأسفل، وما أن لامس الأرض حتى تحول لحقلٍ من الأزهار مُمتلئ بالفراشات. وقد أحسَّ، لا يدري كيف، لكنه أحسَّ كأنه، كأنه أصبح الساحِرة وكل الطيور تُرفرف وترقص حوله، ثُم وكأنه أصبح كل تلك الطيور والساحِرة هي التي تحميهم من بطش الصيادين.

عند هذا الحد توقف **موسى** عن العزف، وعاد **مُهند** لواقعه، لم يستطع فهم تلك الرؤى التي انتابته، نظر لصديقه بتوجس وريبة وهو يتساءل: **"ما الذي فعله بي، أي سِحرٍ ألقاهُ عليَّ؟"**. واستدرك أنه يجلس مع مجنون، فقام من قُربه يهرول فزعاً نحو المنزل.

(٨)

استلقى على سريره وقد فارقه النوم، ظل شارداً ينظر للنجوم الكثيرة المنتشرة بعشوائية في الفضاء يستحضر ما رآه قبل قليل، غير قادر على تصديقه، وينظر بين الحين والآخر ليده وأصابعه كي يتأكد أنها ما تزال كما هي. بعد تفكير عميق خلُص إلى أن كل الذي حدث بسبب تأثير صديقه، مُجرد هلوسات نقلها له المجنون.

عندما أشرقتْ الشمس من جديد لم يستطع مُغادرة سريره؛ إذ أصابته الحُمى وظلَّ طريح الفراش حتى صباح اليوم التالي. وقبل أن يتماثل للشفاء تماماً جرجر خُطاه لسوق القرية لشراء الكبريت والقصدير الذَيْن يستخدمهم في صناعة طِلَق الخرطوش. هو يلجأ لاستخدام هذه الطريقة لأن الطِلَق الجاهزة المستوردة من الخارج تُكلِّف الكثير من المال، والأفضل له أن يقوم بتعبئتها يدوياً؛ وهذا الأمر أيضاً قد علَّمه له عمه **عبد القادر**.

السوق يقع في الجزء الشمالي من القرية، ويعمر ويزدهر في يومي الاثنين والخمسين؛ إذ تأتي العديد من القُرى المجاورة كي

تتسوق فيه وتبيع تجارتها التي تضم الماشية بأنواعها والمحاصيل والتوابل والملابس... وغيرها من الأشياء.

اليوم الأحد لذلك يبدو السوق هادئاً نوعاً ما، توقف **مُهند** عند "**بَلَّه**" بائع اللحمة، لأن **والدته** أوصته بشرائها، ومن ثم ذهب إلى صديقه "**حمد**" كي يشتري منه مُستلزمات الطِلَق.

- السلام عليكم.
- أهلاً بك **مُهند**، الصديق المُختفي.
- تعرف جيداً أنني لا أُطيق البقاء في القرية، إنما أنشد الهدوء في الخلاء ومُحادثة الطيور بلغتي. وأشار إلى طلقة خرطوش فارغة كان يحملها في يده.
- يا سيدي الحياة ليست كلها صيد وخلاء.
- هي كذلك بالنسبة لي.
- هل أنت مُتأكد؟
- نعم.

نظر **حمد** ملياً في عيني صديقه قبل أن يُباغته:

- **وملاذ**. هل تقصد بكلامك هذا أنك قد تجاوزتها، ولم تعد من اهتماماتك؟

ارتجف جسد **مُهند** لسماعه هذا الاسم، اكفهر وجهه واحمر، وبدأ قلبه ينبض بقوة وألم. عبثاً حاول صرف الأمر عن ذِهنه، وانهمر عليه سيل من اللحظات السابقة التي عاشها. **"آه يا دُنيا!"**؛ قالها بُحرقة وألم.

- لو سمحت أعطيني عشرين صندوق كبريت، وخمسة كيلو من القصدير، وشريط من الطِلَق النارية [٣].
- لم تجاوبني على سؤالي.
- لم تُعد تعني لي شيئاً، كل الذي بيننا قد انتهى. الآن هيا أعطني ما طلبته.

ناوله **حمد** كيساً ممتلئاً، أمسكه وغادر مُسرعاً نحو المنزل بينما ذهنه يزدحم بالذكريات. في طريقه صادف **موسى المجنون** يهرول وأطفال القرية يُلاحقونه، يصرخون في وجهه ويشتمونه ويرشقونه بالحجارة، بينما يضحك الكبار وهم يرون هذا المشهد. لوهلة صرفه هذا الأمر عن التفكير في **ملاذ**، وحزن لصديقه المسكين الذي لم يستطع التآلف مع بقية سُكان القرية، وعجِب لوجه الشبه القريب بينهما؛ فهو أيضاً لا يطيق العيش قُربهم أو الاستماع لثرثرتهم، لكنه لم يصل مراحل

٣ طِلق تُستخدم في مسدسات الألعاب النارية

متأخرة مثل صديقه الذي يعجز الآن عن الدفاع عن نفسه أمام حفنة من الأطفال الأشقياء. **"من الذي أخبر هؤلاء الأطفال أن يُطاردوه دون أن يخافوا ردة فِعله؟ كيف عرفوا بأنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه، ومن ثم لاحقوه؟ هل للمجانين رائحة يستطيع الأطفال شمها وتمييزها عن بقية الروائح؟"**. ولم يستطرد في الأمر طويلاً إذ عاودته ذِكرى **حبيبته** السابقة من جديد، رأى وجهها المُشرق يتجلى داخل ذِهنه، وسمع صوتها العذب يرن داخل رأسه؛ فازداد خفقان قلبه، واضطرب تنفسه. عجز جسده عن حمله وكاد أن يسقط لو لم يتكئ على إحدى الجُدران. بعدها اجترَّ نفساً عميقاً، وهدَّأ من روعه، طرد ذِكراها من رأسه بأن انشغل بالتفكير في حال صديقه المجنون، وبعد لحظات استعاد توازنه ومشى كئيباً عابِس الوجه نحو المنزل.

لَّا وصل تناول قطعة دائرية من الحديد بها ثقوب صغيرة كثيرة ووضعها فوق علبة كبيرة مليئة بالماء، ثُمَّ وضع القصدير فوق القِطعة المليئة بالثقوب وغطاه بقِطَع الفحم المُلتهبة. بعدها.. وقريباً من القصدير -الذي بدأ يذوب بِفعل الحرارة ويرتمي عبر الثقوب في الماء- فَرَش حصيرة على الأرض وأخرج أعواد

الكبريت وبدأ يزيل البارود المُثبَّتْ في مقدمة رؤوسها بواسطة زردية -حمراء اللون-. وكلما فرغ من خمسة صناديق، يضع البارود الذي استخلصه منهم في مكانٍ واحد بعيداً عن البقية. وقد فعل ذلك مع جميع الصناديق، إلى أن انتهى منهم.

بعدها قام إلى القصدير الذي ذاب كله مُتحولاً إلى حُبيبات صغيرة داخل العُلبة، تناوله وقام بقطع الزوائد والتشوهات من كل حبة، كي تكون ملساء ولا تتسبب في خدش الغِلاف البلاستيكي للطلقة. ثُمَّ قام بتقطيع الطِلَق النارية بواسطة موس حادة ومواساتها كي تتناسب مع كبسولة طلقة الخرطوش.

بعدما انتهى من كل هذه الأشياء تناول خمسة طلق خرطوش فارغة وقام بإخراج كباسيلهم، ومن ثم تعبئتها بالطِلَق النارية -التي تتكون عادة من مادة كبريتيد الأنتيمون ومادة مؤكسدة- وإرجاعها لمكانها. بعدها قام بصب البارود داخل الطِلق الخمسة وتوزيعه عليهم، فوقه وضع ورق وقام بحشوه جيداً، ثم أخيراً وضع القصدير فوق الورق، وقام بقفل مُقدَّمة الطِلَق بعدما صاروا جاهزين.

عندما انتهى كان النهار قد انتصف، فتناول إفطاره على عجل وخرج يحمل بندقيته مُتجهاً نحو المشاريع الزراعية.

(٩)

مشى وحيداً كما هي عادته، يكلِّم نفسه ويؤنسها. لفتَ نظره الغيوم العِملاقة البيضاء التي تطفو بهدوء في الفضاء، رآها مثل الحصان، ثم اتخذتْ هيئة تمساح، لكنه سُرعان ما تلاشى ليتكون بعده شكل زرافة. ترك السحابة ذات الأوجه الكثيرة ونظر أمامه يستحضر رؤاه عندما كان تحت تأثير الأنغام، وجال في خاطره أنه و**موسى المجنون** يتشابهان في نفورهما من الآخرين ويُفضلان البقاء وحيدين، غير أنه هو من فرض على نفسه هذه الوحدة وليس المجتمع من أجبره على ذلك.

لم يستطرد كثيراً في الأمر، وكما ينزل الوحي على النبي؛ ثقل رأسه وضج بملامح **ملاذ**؛ محبوبته الأولى، والأخيرة، لأنه قد عاهد نفسه على ألا يحب بعدها أبداً، ولن يقترب من امرأة بعد الآن، لأنهن خائنات، ولعوبات في نظره، ولأنه فقد فيهن الثِقة. يُعاند نفسه ويقنعها بأنه لم يعد يحبها بعد فعلتها الأخيرة التي مزَّقتْ قلبه وفتته، لكنَّ كل شيء فيه يُكذِّبُ هذا الادعاء؛

إذ ما أن يأتي ذِكرها على لسان أحد حتى يزداد خفقان قلبه، يختل توازنه، وتضطرب دواخله.

يقترب **مُهند** -بجسده الهزيل ذي الشرايين الظاهِرة على يديه وجبينه- من المشاريع التي حملت حُبه في بطنها ورعته حتى نما واكتمل، المشاريع التي كان لها اليد العُليا في هذا العذاب الذي يعيشه الآن؛ فلو لم يكن يرتادها لما التقى **بملاذ**، ولما أصابته الحرقة وتمزقتْ أحشاءه لاحقاً. المشاريع هي من جعلته يبتعد عن الآخرين، وينفر من صُحبتهم؛ لأنه فقد طعم الحياة وحلاوتها عندما فقد **ملاذ**، وبات كل شيء باهتاً لا لون له. ولو لم يكن تنقصه الشجاعة لكان قد أنهى حياته؛ لكنه يجبن عن الاقدام على هذا الأمر العظيم.

يصل المشاريع ويستنشق رائحة الأيام الخوالي، يحس بطعمها، ويراها بوضوح كأنها حدثت بالأمس.

فقبل ثلاث سنوات كان يأتي يومياً رِفقة صديقه **حمد** يحملان الشِراك لاصطياد العصافير وطيور "**أُم قيردون**"، وذات مرة رمى القدر حجر النرد الخاص به، وكانتْ النتيجة أن يلتقيا في

طريقهما **بملاذ** وهي آتية وحدها من الحقل، وقد تخلَّفتْ عن **والدها**.

ملاذ ذي الخمسة عشر عام -أي أنها تكبره بسنة كاملة-، صاحبة الجدائل الطويلة المنهمرة على ظهرها حتى تُلامس أردافها، ذات العينين الكبيرتين الغارقتين في السواد، والأنف الطويل المُستقيم، وفمها الرقيق العذب.

لقد كان مفتوناً بها منذ أن رآها في أحد أعراس القرية قبل ثلاثة أشهر، وها هي الآن تمشي وحدها نحو القرية التي تبعد مسافة ساعة -إذا ما كان الشخص يمشي راجِلاً-. وحالاً تنصل من رِفقة صديقه، وأسرع لكي يحلق بها ويمشي معها. يبتسم **مُهند** حين يتذكر خجله في ذلك اليوم، وكيف أنه لم ينطق بحرفٍ واحد طوال مشيه قُربها، كان فقط ينظر إليها بين الفينة والأُخرى، وهي تفعل المِثل، ثم يضحكان بعد ذلك. ظلا هكذا إلى أن اقتربا من القرية، عندها تباطأ **مُهند** وتخلَّف عن رفيقته الجديدة. نظرتْ إليه وهي تحثه على المشي، لكنه لوح بيده مُودعاً، وجرى راجعاً إلى صديقه.

سخِر منه **حمد** وضحك عليه عندما أخبره أنه لم يستطع أن يقول شيئاً، فامتلأ قلبه بالحرج والخجل من سُخرية صديقه وأثار حُنقه؛ وعزم على أنه سوف يُكلمها غداً.

يعود للواقع عندما يلمح سبعة من طيور "**القمري**" تهرول يمنة ويُسرى بمرح، يُعبئ بندقيته بالذخيرة، ويبدأ الزحف على بطنه -مُتدارياً بأرض الحقل الغير مُستوية بِفعل المحراث- حتى لا تراه الطيور فتبتعد، ولَّما اقترب منها توقف، ووضع البندقية على كتفه مُتأهباً ومُنتظراً اللحظة المُناسبة التي يتجمع فيها أكبر عدد منها أمام التصويب، ولأن حركة القمري كانت كثيرة وعشوائية لم يتحقق مطلبه سريعاً، وكلما اجتمع اثنان يفترقان سريعاً كأنهن يعرفن المصير الذي ينتظرهن إذا ما بقين هكذا. رغم ذلك.. ظل قابعاً في مكانه دون أن يتململ أو يُبدي أي حركة لفترة طويلة، يراقب بعين الصبر ما يحدث أمامه، ولأنه كان مُتعطشاً لهذه اللحظات لم يمل أبداً، إنما انتظر، وبدأ يحسب ويتنبأ بخطوات الطيور، يريد أن يسبقهم حين يلتقي اثنان ويكون جاهزاً. و ... دوى صوت الطلقة في الفضاء. وقف

وهرول فرِحاً ليُمسك ما اصطاده، كانت ثلاثة طيور، أحجامهم كبيرة، أي أنها سوف تكفي لعشاءه، وضعها داخل مُخلاته واتجه نحو القرية.

وهو في طريقه استرعى على انتباهه السواد العظيم الذي ظهر فوق سماء القرية، في البدء ظنه سحابة، لكنه نفى هذا الاحتمال سريعاً عندما رأى داخله حركة أجنحة، ولَّما أمعن النظر عرفها؛ إنها الطيور التي تعيش في البُحيرة. حدَّث نفسه: **"ما الذي يحدث هناك؟ هل اصطاد أحدهم منها؟"**. وأسرع في المشي كي يرى ما الذي حدث، لَّما وصل التلة العالية التي يجلسان عليها هو و**صديقه المجنون**، لم يرى أحداً في البُحيرة، فقط الطيور مُحلقة في الفضاء وهي تصرخ فزعة، والمُثير للتساؤل أكثر هو ألا أحد من القرية التفت لهذا المشهد الغريب. أمعن النظر ملياً في الطيور، وأنصت لصراخها، ولأنه يستطيع أن يميز بسهولة كل صوت عن الآخر، فقد استطاع تمييز هديل القمري عن البقية، لأنه كان الصوت الأشد بين تلك الجوغة التي أمامه. استولتْ عليه الدهشة للحظات جراء هذا الأمر، وجال في خاطره أنه قد يكون بسبب الطيور التي اصطادها، نظر لمخلاته ملياً، ونظر نحو البُحيرة، ثم تذكَّر حُلمه

عندما كان **موسى** يعزف على الربابة، وكيف أنه رأى نفسه واحداً من هذه الطيور والساحرة هي التي تحميه. لم يُطِب له هذا الاستنتاج وكلّم نفسه بصوتٍ عالٍ: **"ما هذه السخافة يا مُهند! أنت الآن تفعل مثل صديقك المجنون. والمنظر الذي أمامك هو أمر عادي، يحدث إذا ما رأت الطيور ثُعباناً، أو أي حشرة أُخرى. توقف عن هذه الأفكار التي حتماً لن تجلب لك خيراً"**.

طمأن نفسه بهذه الكلمات وإن ساوره الشك فيما يقول. أعطى الطيور والبُحيرة ظهره وتوجَّه نحو منزلهم.

(١٠)

لم يهدأ له بال وهو جالسٌ في فناء المنزل ينتف ريش الطيور التي اصطادها، وكُلما قلَّب الأمر في رأسه يزداد توجُّسُه وقلقه، وقد تيقن تماماً بأن الأمر يعنيه بصورة شخصية، وأن للطيور التي اصطادها يدٌ في ذلك. وعندما قُدمتْ له بعد شواءها كانتْ مُريبة في نظره، ولم تكن مثل بقية الصيد الذي كان يأتي به؛ إذ رأى اللحم وهو يتحرك، بل وسمع صوتاً نابعاً من داخله يُشبه الأنين. **"تباً! أنت خائف، لذلك ترى هذه الخيالات"**. أغمض

عينيه وهو يقول لنفسه بصوتٍ مسموع **"اهدأ... اهدأ..."**. بعدها التهم اللحم الذي أمامه سريعاً دون أن يُركز معه. وليته لم يفعل؛ فبعد لحظات بدأت بطنه تؤلمه وتصدر أصواتاً، لم تفلح معها خلطة الجنزبيل التي قدمتها له **والدته** -التي كانت عادة تقضي على مثل هذه التقلبات-. حاول النوم مُتناسياً الألم لعلَّ ذلك يُخلصه منه لكنه لم يفلح، أخيراً عندما ضاق به المكان قام من مرقده، تحامل على نفسه وتوجه خارج القرية، رغم أنه لم يكن يقصد جهة مُحددة.. إلَّا أن قدماه قادته إلى حيث يجلس صديقه، ودون أن يشعر وجد نفسه يقف أمام **موسى**، ورأى على جبينه آثار دماء وجروح حديثة، ولمَّا أمعن فيه النظر وجد وجهه كله مليء بالجروح ومتورماً. فكلَّمه بحزن وأسى:

- لا تقُل لي أن كل هذه الجروح سببها أولئك الأطفال صباحاً.
- في الحقيقة جميع سُكان القرية شاركوا في هذا الأمر.
- جميع سُكان القرية؟
- نعم جميعهم؛ فقد كانوا يضحكون بينما هؤلاء الأشقياء الملاعين يرشقونني بالحجارة، ولم يزجرهم أحد أو يصدهم عني، هل لأنني مُختلف عنهم يلعنونني

هكذا! صمت قليلاً ثم واصل: يا للبشر المساكين، يشمئزون مني لأنني أرى الأشياء من زاوية مُختلفة، ولا أشبههم في تفكيرهم!

- ولماذا لم تُدافع عن نفسك؟
- دفاعي لن يُغير من الوضع شيئاً، بل ربما يزيده سوءاً؛ لأنه قد يتدخل الكِبار وقتها ويتفاقم الأمر.
- آسف يا صديقي.
- ولِما تأسف، فأنت لم تفعل شيء، كما أنك مثلي وإن كُنتَ تجهل ذلك.
- ماذا؟ لا أنا لستُ مثلك، أنا لستُ مجنوناً.
- وما هو الجنون؟

لم يجد **مُهند** جواباً، فواصل صديقه:

- فقط كُن مُختلفاً عن الآخرين، أُنظر للأشياء بعين أُخرى غير التي ينظرون بها، قلل السير معهم ومُشاركتهم أفعالهم، وانشغل بنفسك وبالخلوة معها ومُحادثتها... عندها سوف تصير مجنوناً في نظرهم.
- هل تعني بذلك أنك لست مجنوناً، إنما أهل القرية هم من ألصقوا بك هذه التُهمة؟

- لا تهمني المُسميات.
- ....
- مجنون، سليم العقل. سمين، نحيف. قبيح، جميل. غني، فقير... الخ كل هذه المُسميات لا تعني لي شيئاً لأنها تصف الشكل الخارجي للإنسان، والمهم هو الداخل، الجوهر، الروح.
- يجب أن تعني لك شيئاً، حتى تستطيع معرفة وتمييز الناس من حولك.
- واهمٌ هو من يختبئ خلف هذا المفهوم المُزيف.
- معذرةً، ولكنك أنت المُزيف الذي لا يود رؤية الأشياء على حقيقتها.

لم يرد عليه **موسى**، إنما باغته بسؤاله:

- لقد رأيتَ فزع الطيور عندما اصطدت رِفاقها أليس كذلك؟

ارتجف جسد **مُهند** واقشعر عند سماعه للسؤال.

- كيف عرفت ذلك؟ سأله بدهشة.
- لقد أخبرتني الطيور.
- ماذا؟

- الطيور التي اصطدتها كانت من طيور البُحيرة، والجوقة التي رأيتها مُحلقة في الفضاء سببها أنت، لقد كانوا يودعون أصدقاءهم.
- أصدقاءهم؟
- نعم، فطيور البُحيرة مُرتبطة مع بعضها، وتتألم عندما يموت منها واحداً، وذلك الصُراخ الذي سمعته كان بُكاءها.
- تتألم وتبكي؟
- نعم، ولو عرِفت سِر هذه الطيور فإنك لن تصطادها بعد الآن، بل ستصير راعياً وحامياً لها، وستمنع كل من يُحاول قتلها.
- وما سِرها؟ هيا أخبرني.
- هل تتذكَّر عمك **عبد القادر**.
- ما دخله بكل هذا؟
- ..
- هيا أخبرني.

وقف **موسى** على رجليه، ومشى مُبتعداً عن **مُهند** -الذي بدا مبهوتاً بما سمِع-، وغير عابئ بمناداته له.

(١١)

جلس **مُهند** وحيداً على التلة وهو يُحاول أن يُجَمِّع ما سمِعه ويفك عنه اللبس، لكن دون جدوى، فقد كان كلام صديقه مُبهماً مليء بالألغاز. واشتعل رأسه بالأسئلة: **"ما السبب الذي جعله يَذْكُر عمي عبد القادر؟ وكيف لطير في البُحيرة أن يبكي لأنني اصطدت طيوراً أُخرى في المشاريع؟ كيف علم الطير بذلك؟ والسؤال الأهم كيف علم موسى بكل هذا؟ من الذي أخبره؟ هل يعرف لُغة الطيور؟"**. يصمتْ لحظات ثم يواصل: **"لالا.. هو مجنون ومن المُخجل أن آخذ كلامه على محمل الجد، يا لي من ساذج! لكن حديثه كان جاداً ولم يكن يحمل نبرة من يكذب!"**. **"اخ رأسي سوف ينفجر. أي لعنة تحملها هذه البُحيرة؟ كيف لها أن تكون بهذا اللُغز والغرابة؟"**. بقي في مكانه حتى انتصف الليل، ثم جرجر خُطاه نحو المنزل.

صباحاً مشى إلى السوق، لصديقه **حمد** علَّه يُخفف قليلاً ما بداخله، وجده يجلس في ظِل الدكان على سرير صغير مُستطيل يتسع لثلاثة أشخاص، وبعد أن تبادلا التحايا بادره **حمد** بالسؤال مازِحاً:

- يبدو أن اليوم إجازة من الصيد.

ابتسم **مُهند** وهو يقول:

- نوعاً ما.
- ها.. عليك ألا تطيل الغياب عليّ بعد الآن، فالجلوس في الدكان يقتلني، يجب أن تخصص لي جزءاً من وقتك وتأتيني بعد كل يومين أو ثلاثة كي تؤانسني.
- إن شاء الله. قالها مُبتسماً وفي داخله امتلأ سعادة، فصديقه **حمد** هو الوحيد -يأتي بعده **موسى**- الذي يجد بعض الراحة في الجلوس معه؛ لأنهما أصدقاء منذ أن كانا أطفالاً يهرولان حفايا في شوارع وأزقة القرية.
- كيف حالك؟ وما الجديد في حياتك؟
- لا شيء. قالها بيأس، وأضاف بعد أن صمت قليلاً: ألم ترى أو تسمع قصصاً غريبة عن البُحيرة غير أنها تأخذ كل من يدخل إليها مساءً؟
- وهل هُناك أشد غرابة من أن يختفي كل من يدخل إليها؟ لماذا تسألني هذا السؤال؟
- كل ما في الأمر أنني رأيتُ بعض الأشياء الغريبة.
- مثل ماذا؟

وقص عليه ما رآه عندما اصطاد الطيور، وما قاله **موسى المجنون**.

- يبدو أن الخلاء والهيام فيه قد جعل عقلك يختل، كيف لك أن تصدق كلام **موسى**، هو مجنون، ألا تعرف ما يعنيه ذلك؟ من ذا الذي يُصدق رجلاً مجنوناً! اللهم إلا إذا كان هو أيضاً مثله. أخشى عليك يا صديقي من أن يصيبك مكروه، عليك أن تكف عن قضاء اليوم كله وحدك مع الطيور أو تحت ظِلال الأشجار، يجب أن تُجالس البشر وتسمع أحاديثهم وأخبارهم، لأن هذا يقيك الوحشة التي سوف توصلك بدورها للجنون. اسمع نصيحتي وكُف عن ذلك.

"فقط كُن مُختلفاً عن الآخرين، أُنظر للأشياء بعين أُخرى غير التي ينظرون بها... عندها سوف تصير مجنوناً في نظرهم" قفز كلام **موسى** إلى ذِهنه طوال حديث **حمد**، وآثر الصمت بعدها ولم يعترض على أي من كلامه، إنما هزَّ رأسه كدلاله على أنه يوافقه الرأي، وأنه سوف يفعل ما يقوله. **"وحدك أيها المجنون من يفهمني ويستطيع مدَّي بالإجابات"** حدَّث نفسه.

- كيف حال **ملاذ**؟ باغته **حمد** بالسؤال، مُغيِّراً مجرى الحديث.

جفل كمن صعقته كهرباء، ارتجف جسده واضطرب، وتلعثم قائلاً:

- قُلتُ لك قبل الآن، لا أدري عنها شيئاً.
- حريٌ بك أن تدري، فالحاجز الذي كان يفصلكما قد انزاح، وأرى أن تسامحها وتمضي قُدماً في حياتك معها.
- هذا الأمر لم يعد يعنيني. أنا أفضل حالاً بدونها.
- حقاً؟ منذ أن حدث ما حدث بينكما، وأنت هائم في الخلاء، بل فضلته عن البشر ومؤانستهم، والآن ها هو عقلك شارف على التلاشي أيضاً. وبعد كل ذلك تقول إنك أفضل حالاً من دونها! قل هذا الكلام لأحدٍ غيري.
- ولك أيضاً.. تلك حِقبة قد انتهتْ، صحيح أنها كانت الربيع بالنسبة لي، كانت الأنفاس التي أتنفسها، العين التي أنظر بها، القلب الذي يضخ الدماء في جسدي، والروح التي تنير طريقي وترشدني. لكن كل هذا قد تلاشى وانتهى.

تفرَّس **حمد** في وجه صديقه، فوجده شاحِباً، عيونه زائغة يملؤها الحزن ويغلفها. ثم نظر بعيداً وهو يستحضر صورة صديقه القديمة ذي الوجه المُشرق، والعيون الضاحكة، والروح المرِحة المليئة حياة وألقاً. **" تباً للحب الذي يجعل الإنسان يذبل وينطفئ هكذا، تباً للحياة الغير مُنصفة، وتباً لهذه القرية التي كسرت قلب صديقي الحنون وحولته لحجرٍ أخرص. حولته لشبح يجوب الفيافي بحثاً عن أنيسٍ، وأي أنيس ذاك الذي بدد وحدته! إنها الطيور والحيوانات والأشجار. كان الله في عونك، كان الله في عونك!"**.

أتتْ فتاة صغيرة تحمل قارورة تُريد زيتاً، فقام **حمد** كي يُلبي طلبها، واستأذن **مُهند** مُتعلِلاً بأن لديه بعض الأشياء التي عليه إنجازها. لكنه خرج من القرية مُتجهاً نحو الخلاء، باحِثاً عن السلوى فيه، ولم يجدها إلَّا في استحضار الأيام الخوالي.

(١٢)

في اليوم التالي أتى في نفس الوقت الذي صادفها فيه بالأمس، لكنه لم يجدها، وقد عرف منها فيما بعد أنها تعمدت ألا تلتقي به، لأنها كانتْ تعلم بأنه سوف يأتي مُتتبعاً أثرها. وعندما

سألها: كيف لها أن تكون واثقة هكذا؟ غمزت له بعينها وقالتْ مُبتسمة: **"عيناك هي من أخبرتني بذلك"**.

بعد خمسة أيام قضاها رفقة صديقه **حمد** متجولين بين القرية والمشاريع مُحاولين انتهاز لقاءها أتتهما الفُرصة المناسبة؛ إذ لمحا **ملاذ** داخل الحقل تمشي ببطء ناظرة للأسفل باحثة عن الحشائش المُتطفلة التي تُرافق الذُرة كي تقتلعها. كان الوقتْ المُخصص للعمل قد انقضى ورجع الجميع إلى القرية - كي يتناولون إفطارهم ويُريحوا أجسادهم -ويتهيأوا- ليأتوا مرة ثانية بعد الظهر-، وذلك يعني أنها قد تعمَّدت أن تبقى وحدها تنتظره. مطَّ **مُهند** شِفاهه وأطلق صافِرة تعبر عن فرحته، ثم ترك صديقه واتجه نحو الغزالة التي ترعى وحيدة في الحقل.

لمَّا اقترب منها عجز لسانه عن النُطق وهربتْ الكلمات من داخله، فوقف قُربها ساكناً، وبدأ جبينه بالتعرق.

قالت له:

- هيا قُل شيئاً.

لكنه اكتفى بالتبسم في وجهها ببلاهة، وبعد مُجاهدة قال مُتلعثماً:

- مـ...ا ما رأيك أن أُساعدك في اقتلاع الحشائش؟

فأومأت له برأسها أن نعم. وبعدما انغمسا في العمل قالتْ له:

- لم أكن أعلم أنك خجول لهذا الحد.
- لستُ خجولاً، لكنها البدايات! وفي حضرتكِ تحديداً فإنها تصبح مهمة شاقة وصعبة.
- ولِمَ معي تحديداً.
- لأنكِ جميلة جداً، لذلك الجميع يخشى الاقتراب منكِ.
- لكنك اقتربت!
- وكدتُ أن أهلك جراء ذلك.

أطلقتْ ضحكة عالية قبل أن تضيف:

- أنا سعيدة باقترابك، وأتمنى أن نُبحر معاً بعيداً.
- نُبحر إلى أين؟ سألها مُستغرباً.

غمزت له بعينها قائلة:

- سوف تعرف لاحقاً.
- ...
- ...

استمر الحديث بينهما دون توقف، مُعلنين بذلك بداية فصلٍ جديدٍ في حياتهما.

***

في ذلك النهار انزاح الحاجز الذي كان يفصل بينهما، ووضع **مهند** بذور حبه في أرض **ملاذ**. الأرض التي سوف تلتهم أحلامه لاحقاً وتحرق أشجاره بعدما تقوى جذوعها وتُزهر ويقترب من قطف ثمارها. الأرض التي سيظل يلعنها طوال حياته.

(١٣)

توالتْ اللقاءات بعد ذلك، كانتْ **ملاذ** تتأخر عمداً في الحقل كي تنتهز فُرصة لقاءه والحديث معه، وهو الذي أدمن وجودها لم يُفكر يوما ولم يخطر بباله أن خُطاهما سوف تفترق ويفقدها إلى الأبد. إذ كيف يفقدها وهو يرى داخل عينيها ولهها وهوسها به! هو موقن تماماً بأنه إذا ما فارقها يوماً فإنها سوف تذبل وتفنى. كيف يفقدها وهي ملاذه الآمن الذي يأوي إليه ويحتمي به كلما عصفتْ به تقلبات الحياة، هي جنَّته التي يختبئ في أحضانها، ليتذوق طعم ثِمارها، ويستنشق عبير أنفاسها.

ما زال يستحضر كيف أنها ذات مرة عندما كبر الحقل واستطالتْ سيقان النبات -أي بعد أكثر من شهر من لقاءهما الأول-، أنهما كانا يجلسان تحت شجرة الهجليج وحدهما ولا شيء يخدش خلوتهما ويتلصص عليهما غير حفيف الرياح العالي الذي تصدره أوراق الشجرة المتلئة بزقزقة العصافير. وقتها كان يتكئ بظهره على جزع الشجرة مُمدداً رجليه على الأرض، وهي مُستلقية أيضاً تضع رأسها على فخذيه، كانتْ عيناها العسليتان تغوصان عميقاً في عينيه وشفتيها الشهية - التي تدعوه دائماً للإبحار فيهما والانجراف والاستسلام لتياراتهما المتضاربة، شفتاها التي تدوخه وتنسيه كل شيء ليكون أسيراً لهما فقط- تهمس له بصوتٍ عذب: **"مُهند، مُهند، بالله عليك أين كنت كل تلك السنين السابقة، آخ، كلما نظرتُ إلى السنوات التي لم أعرفك فيها أشعر بالضياع والحسرة عليها. فحياتي قبلك كانتْ كئيبة، خالية من المعنى ومن كلِ لون. لكن بعد لقاءك كل شيء بداخلي قد تغيَّر، كل شيء بداخلي أصبح يُزهر ويُغرِّد، كل شيء بداخلي أصبح يود أن يفرد جناحيه ويُحلِّق مُتعطِّشاً لاكتشاف عوالم جديدة، كل**

شيء بداخلي يود الرقص، الرقص معك تحديداً، كل شيء بداخلي يود الانجراف لتياراتك والذهاب حيثما تريد، كل شيء بداخلي يهتف ويضج باسمك". تصمتْ للحظات، وتَعُض على شفتها السُفلى، تغويه هذه الحركة، ويشعر بأثر العضة في قلبه، فينحني نحوها، ويلتهم شِفاهها علَّه يخفف اللهيب الذي اشتعل بداخله، وتُغمض هي عينيها مُستسلمة لهذا الغوص الجميل في مياهه. وقبل أن يغرف أو تغرق هي يترك شِفاهها، لأنهما يُدركان بأن الغرق يعني اقترافهما للمحظور، والقطف من الفاكِهة المُحرمة، لذا يتداركان نفسيهما.

ترتسم على شفاهها أعذب ابتسامة يُمكن لإنسان أن يراها، ولأنه من المُختارين؛ ينعم برؤياها. وتضيف بعدها: **"يا لها من قُبلة، وكأن شفتيك يا حبيبي نافذة أطل بها على الجنة، إذ كُلما تذوقتُ طعمهما ينتابني شعور، لا أدري كيف أُفسره، لكنه يجعلني أفقد إحساسي بكل شيء حولي، وفي نفس الوقت بأنني أحس بكل شيء يحدث في هذا الكون الشاسع؛ ما أقصده هو أنني أنتقل من موضعي هذا إلى موضع آخر أصير فيه وكأنني آذان للكون أسمع وأحس بكل شيء يحدث فيه. هل فهمت قصدي؟".** فيومئ **مهند** وهو لا يعي شيئاً مما

تقول، ويتساءل مُستغرباً: **"كيف لها أن تقول مثل هذا الكلام المُلغز، أين تعلَّمته؟"**، لكنه يُجاريها. ثم تستدرك وكأنها نسيت شيئاً، فتقول له -وهي تضم يديه عليها بقوة-: **"لا تتركني يا مهند مهما حدث، لأنني لن أستطيع العيش بدونك؛ فأنت أنفاسي، وقلبي النابض"**. يُجيبها: **"لن أتركك أبداً يا حُلْوَتي"**. تقول: **"هل تعدني بذلك؟"**. فيطبع قبلة على شفتيها ويهمس لها: **"أعدك"**.

يستدركان بأن الوقت قد مضى، وعلى **ملاذ** أن تُغادر حتى لا تتأخر أكثر، فيقومان ويودعان بعضهما، ويتواعدان على أن يلتقيا غداً.. غداً الذي لم ولن يأتي أبداً.

(١٤)

عند الظهيرة، عندما هدأت شوارع وأزقة القرية من المارة، وقف **موسى المجنون** على شاطئ البُحيرة وحيداً دون أن يراهُ أي إنسان، أمعن النظر في الجزيرة الصغيرة القابعة في الوسط، ثم تجرَّد من ملابسه، وتوغل ببطء في الماء الدافئ، وكأن للماء قُدرة سحرية على الشفاء؛ فقد برأت جميع جروحه التي خلَّفتها حجارة الأطفال، وبرزت عضلات جسمه، استطال

شعره حتى لامس أردافه، وكوَّنت حُبيبات الماء العالقة في أصابع رجليه ويديه طبقة جلدية رقيقة شفافة جعلت الأصابع تلتصق مع بعضها، فصاروا مثل أرجُل الوزين، بعدها اندفع بقوة نحو الجزيرة.

توقف -بعدما تجاوز أشجار الطرور وأزهار اللوتس- عند مساحة صغيرة دائرية لون مياهها أسود داكن مما يدل على عُمقها، وسُرعان ما تحولت الدائرة إلى زوبعة مُظهرة فجوة عميقة نحو الأسفل لا تتناسب مع قاع البُحيرة المعروف لدى سُكان القرية، ودون أن يُفكّر كثيراً قفز داخل هذه الهاوية.

بعد ثوان أطلَّ على عالمٍ آخر يختبئ داخل القاع، وجد نفسه يقف على شاطئ بُحيرة، لكنها ليست بُحيرة القرية، إنما واحدة أخرى، في بُعد آخر مليئة بشتى أنواع الطيور، ترعاهم الساحِرة، والتي يبدو أنها كانت في انتظاره.

نبوءة الطيور

(١)

صباح يومٍ خريفي ماطِر، استيقظ أهل قرية **التارك عرضو** على خبرٍ كارثي مُفجع؛ إذ وُجِد الزوجان "**أمجد**" و" **فاطمة**" - اللذان لم تتجاوز أعمارهما الثلاثين عاماً- ميتين داخل منزلهما، ولم يستطع أحد معرفة الذي أصابهما، مُخلفين ورائهما ابنهما الوحيد **موسى** الذي يبلغ من العمر خمس سنوات.

مساء ذلك اليوم انتقل **موسى** إلى بيت عمه "**فريد**"، البيت الذي لم يحس تجاهه بالألفة قط، وعاش غريباً عنه. إذ ومُنذ أيامه الأولى تُرِك لمجابهة شرور الحياة ومصاعِبها عاري الصدر، ولا أحد يحمي ظهره. لم يجد حناناً أو حضُناً يدفئه ويجعله يشعر بالأمان والطمأنينة، إنما كان منبوذاً من قِبل زوجة عمه "**العازَّة**" -التي لم تُرزق بأي طفل طوال فترة زواجها الذي أتم حتى الآن العشرين من عمره-، واستعملته لقضاء حاجاتها، ولتفريغ سخطها ومقتها عليه، وكأنها تُعاقبه لأنه خرج من رحم امرأة غيرها.

كل يوم ما أن تشرق الشمس كانت ترسله إلى السوق، وعندما يأتي تطلب منه الذهاب إلى البُحيرة لجلب الماء. ورغم أن عمه

يملك حِماراً إلا أنها تأمره أن يمشي برجليه يحمل دلوه الفارغ، مُعللة ذلك بأن الحِمار قد يوقعه ويهرب منه، وهذا سوف يوقعهم في مشاكل هم في غنى عنها. وبعد أن يملأ الدلو بالماء يضعه فوق رأسه رغم ثِقَلَهُ، ويتحمله خوفاً من صُراخها وشتائمها، ويعود مرة أُخرى برجليه حتى يصل المنزل والعرق ينزُّ عن جبينه، فتفرِّغ الدلو سريعاً في إناء آخر ثُم تأمره بملئه مرة أُخرى. لم تكن ترضى أن تراه جالساً دون فعل شيء، وتختلق له أعمالاً شتى كي يقوم بأدائها.

لذلك ومنذ صِغره نبذ وكرِه هذه **العازَّة** ذي الوجه العابس المليء بالتجاعيد كثيرة الطلبات.

بهذه الطريقة المُرهقة عاش تحت سقف بيت عمه، ولم يشعر قط أو ينتابه مجرد إحساس بأن حياته مُهمة لأحد، أو بأن لها معنىً سامي؛ وكأنما خُلِق فقط كي يخدم **العازَّة**.

عزاءه الوحيد كان في الخيال، حيثُ يستحضر صورة **والديه**، ويعيش في أحضانهما مُدللاً. كل مساء عندما ينام عمه وزوجته، يُغمض عينيه ويسترخي بجسده حتى يغيب تماماً عن الواقع، وتتلاشى كل الآلام التي تسكن مفاصله، ومِثل

سيدة تقوم بتنظيف بيتها كي تجعله مُهيأ لاستقبال ضيفٍ عزيز؛ كان يُصفي ذِهنه مُتناسياً واقعه الذي يعيشه، ومن ثم يستحضر **والديه**، ويعيش معهما تفاصيل يومه من جديد.

لكن يتبخَّر كل هذا النعيم مع خيوط الشمس الأولى، حين يخترق أُذنيه صوت **العازَّة**، الذي يُمثل له كل الشرور التي في الدنيا.

ظلَّ موسى أسيراً لقبضتها الباطشة سنوات عدة، لأنه لم يعرف التمرد بعد، لكنه ما أن وصل الثالثة عشر من عُمره حتى بدأت تُراوده فِكرة الهرب من هذه الأعمال الشاقة وإنقاذ نفسه من هذا التهميش. وفي إحدى الليالي قرر أن يبتعد عن هذا المنزل المليء بالنكد، وهذه القرية علَّه يجد حياة أفضل في مكانٍ آخر، مكان يستطيع أن يحس تجاهه بالانتماء.

في تلك الليلة ظلَّ ساهراً ولم يغمض له جفن، وفجراً، قبل أن تبدأ **العازة** صياحها في وجهه اختفى عن الأنظار وتسلل خارج القرية، ذهب كيفما ساقته رجلاه، إذ لم يكن يقصد وجهة

مُحددة، لأنه لا يعرف أصلاً إلى أين سوف يتجه، وكل الذي كان يملأ تكفيره هو الابتعاد قدر الإمكان عن هذه العجوز.

بعد مرور أربع ساعات من المسير تخطى مشاريع القرية وخرج من المنطقة، بعد هذه النقطة استقبلته الأشجار الكثيفة، التي لم يرَ لها آخراً، ولم يرَ أثراً لحياة بشرية قريبة منها. وتناهى لسمعه عواء الذئاب، وزمجرة الضباع؛ فدب الخوف في قلبه، أحس بفداحة ما ارتكبه من حماقة، لأنه سوف يرمي نفسه في التهلكة، وأن المنزل وإن كانت أعماله شاقة عصية عليه لكنه يبقى آمناً ومألوفاً لديه أكثر من هذه الأحراش والغابات التي لن يصمد فيها كثيراً.

ازداد هلعه عندما رأى ثعلباً يمشي الهويني بعيداً عنه، فجرى راجعاً نحو قريته، ولم يُبطئ إلا حينما لاقاه أُناس يعرفهم يمتطون حميرهم سائرين أيضاً نحو القرية. عندها مسَّته بعض الطمأنينة ومشى معهم إلى أن وصل منزل عمه، وليته لم يصل، فقد وجد **العازَّة** تنتظره وهي مُمتلئة غضباً. صاحت فيه:

- أين كنت أيها السافل الحقير؟ كيف تتركني وحدي أيها الشقي وتخرج لتلهو مع الأطفال، وأنت تعلم بأنني أحتاجك لتذهب إلى السوق ولكي تأتي بالماء من البُحيرة؟

ثُم تناولتْ سوطاً طويلا -قبل أن تُمسكه يديها كان فرعاً في شجرة لعوت-، وهوت به على ظهره، فاجأه الأمر، ولم يشفع له الصراخ الهستيري الذي اعتراه. كانتْ هذه هي المرة الأولى التي يجلده فيها أحد، ولم تتركه إلا بعدما أُدمي ظهره. بعدها قالتْ له:

- اليوم لن تأكل من بيتي، هل فهمت. هيا أخرج واختفي من أمامي. لا أود أن أرى وجهك القبيح.

عندها خرج **موسى** ذليلاً مُهاناً، مشى إلى خارج القرية، وبعيداً عنها جلس فوق تلة عالية مُتأملاً البُحيرة بنوع من الاستغراق؛ إذ لأول مرة يراها من هذه الزاوية التي تجعل المرء يفتتن بها، لأنه يرى كل شيء فيها.

جلس **موسى** غير عابئ بألسنة الشمس الحارقة التي ألهبتْ جسده، ولا بالألم الذي اعتصر بطنه من شِدة الجوع.

(٢)

وكأن سياط **العازة** قد كسرتْ حاجز الخوف بداخله، لم يعد يهابها أو يتجنب سخطها، أصبح يخرج من المنزل متى شاء ويأتي متى شاء، تاركاً إياها تصرخ في وجهه وتُعنِّفه.. بل وتضربه أحياناً، غير أن كل ذلك لم يعد يخشاه. ولأنه قد آنس نفسه في الخلاء ووجد السلوى فيه والسكون، فلا صوت **العازة** يلوث أُذنه ولا سياطها التي تؤلم ظهره؛ كثُر ابتعاده عن المنزل وقضاء جُل وقته في الخارج، أو جالساً وحيداً على التلة يُكَلِّمُ نفسه ويفضفض لها، وفي أحايين كثيرة يتزامن جلوسه مع انتصاف النهار، فيكون فِعله هذا محل استغراب وشفقة كل من يمرون قُربه مُتسائلين: **"كيف لإنسانٍ عاقل أن يجلس في هذا المكان وسط لهيب الشمس الحارِقة؟"**. وكلما نصحه أحد بأن يقوم ويحتمي من أشعة الشمس حتى لا يُصاب بالحُمى، ينظر إليه دون أن يتفوه بكلمة، بينما يُجيبه في سِره: **"هذا الذي ترونه لهيباً حارقاً لهو أهون عليّ من صُراخ العازَّة وشتائمها"**. وبعد مُدَّة ألِف الناس المشهد وتركوه لحاله، وسرتْ شائعة في القرية بأن **موسى** اليتيم قد أصابه الجنون.. لأنه صار يجلس طوال

النهار على التلة العالية، ولا يرغب في مرافقة الآخرين أو اللعب معهم، وكأنه سابقاً كان يجد الوقت ليلهو معهم!

من يومها صار يُلَقَّب **بالمجنون**.

والتصق به هذا المسمى الجديد أكثر بعد زيارة الشيخ **أبو قرون** رِفقة حيرانه للقرية، إذ هيج أحاسيسه وأطربها الصوت القوي النابع من الطبول والهمهمات التي تخرج من حناجرهم مُرددة: **"الله... الله..."**، وانجذب للذِكْر كما تنجذب الفراشات لألسنة اللهب، وذاب فيه كما تذوب الظلمة في النور. ففي ذلك اليوم دخل **موسى** دائرة الرقص وظل يدور حول نفسه إلى أن أُغمي عليه. هذا الدوران أذهل أهل القرية وكان مثار تعجُّب بالنسبة إليهم لأيام بعد ذلك، وتفسيرهم الوحيد لهذا الأمر هو أن المجانين وحدهم من يستطيعون فعل ذلك؛ لأن الشياطين تعينهم على ذلك.

في المساء، وقبل أن يرحل **الدراويش** عن القرية، أهداه الشيخ جلابية مُرقعة مُزركشة الألوان، وقال له: **"من الآن وصاعداً أنت أحد أبنائي"**. ولَّما طلب **موسى** مُرافقته والرحيل معه، أخبره الشيخ **بأن ينتظر المرة القادمة**، وأهداه ربابة قائلاً له:

"عندما تود أن تتحدث معي اضرب على أوتارها وسوف أسمعك". أصابته الحيرة من هذا الكلام، وردَّ عليه: **"لكنني لا أُجيد العزف عليها"**. فمسح الشيخ على رأسه بحنان وقال: **"لا بأس، لديك الوقت الكافي لتتعلَّم ذلك"**. قَبِلَ **موسى** بذلك راضياً وسعيداً؛ إذ لأول مرة يحس بعطف وحنان خالص ينبع من أحد تجاهه، ولأول مرة يحس بالانتماء لأُسرة بعد وفاة **والديه**.

بعدما رحل **الشيخ** مع حيرانه واختفوا عن الأنظار، دخل **موسى** البُحيرة واغتسل بمياهها، لحظتها لم يكن خائفاً من الساحِرة أو من أي شيء آخر، كأن كلمات **الشيخ** قد مدته بالقوة والثبات، وظل يسبح داخل الماء مُستمتعاً، مُنتشياً، ومُتأمِلاً، إلى أن انتصف الليل. خرج بعدها وارتدى ملابسه، ثم اتجه نحو التلة العالية يحمل ربابته، وما أن جلس حتى أحس بأن البُحيرة تتوهج وتُناديه، وبأنه ينتمي إليها بطريقة ما وكأنها جُزء منه، أو هو جزء منها. لم يفهم هذا الشعور الغامض، وظلَّ ينقل بصره بعشوائية في البُحيرة، فرأى طيور البجع والوزين تلهو في وسطها وتتراشق بالماء، ورافق رؤيته هذه حدثاً آخر أشد غموضاً وحيرة، حدث كأنه آتٍ من بوابة الأحلام؛ إذ سمِع

الطيور تتحدَّث مع بعضها، سمعها تضحك. وقريباً منها رأى كُتلة ضخمة غارقة في السواد، لمَّا أمعن النظر فيها تبين له أنه شعر إنسان، فاستغرب أن يوجد بشري في هذا المكان دون أن تجفل منه الطيور، وبينما هو ينظر باستغراب ودهشة إلى الشعر الكثيف إذ بصاحبته تلتفت نحوه وتتلاقى أعينهما، وحالاً أُغمي عليه.

لم يستيقظ إلا عندما سقط ضوء شمس الصباح على وجهه، فقام مُتجهاً نحو منزل عمه خائفاً وجِلاً، ورأسه مشحوناً بالرؤى التي حلم بها ليلة البارِحة.

(٣)

على شاطئ البُحيرة وقف **موسى** عارياً، بينما الهواء الرطِب يصطدم بجسده مُسبباً له القشعريرة والارتجاف ويُراقص شعره الكثيف -الذي يصل حتى خِصره-، رغم أن الرجل الواقف كان هو.. لكنَّ صورته المُنعكسة على سطح الماء كانت غريبة عليه، وتدعو للدهشة والذهول؛ فقد كان في سِن الخامسة والعشرين، ومُحاط بأسراب الطيور المُختلفة مُحلِّقة فوقه وتطوف حوله كأنه شيء مُبجَّل، وتهتف باسمه أثناء

طوافها: **"موسى، موسى، موسى..."**. بدت له نبرات أصواتها خائفة، راجية، مليئة بالمحبة.

تقدم **موسى** ولَّا وطئ برجليه الماء توهج، وانبعث منه الضياء، من هذا الضياء تشكَّلتْ امرأة ووقفتْ أمامه، كانتْ تشبهه؛ عارية، وشعرها الأسود الناعم يتموَّج خلف ظهرها. تقدَّمتْ نحوه حتى التصقتْ به، ضمَّته نحو صدرها وسريعاً غطتهما أسراب الطيور، وازداد دورانها حولهما وهي تصيح: **"ها قد أتى الفلَّاح يحمل البِذرة، وها هو يحفر لها الأرض ويقذفها بداخلها؛ الأرض التي سوف تُسقى من مياه البُحيرة حتى تنمو البِذرة وتكبر"**. وتفرغتْ الطيور عندما ابتعدت المرأة عن **موسى**، وغاصت في الماء. وقف هو يُراقبها، وقبل أن تختفي عن أنظاره حاول اللحاق بها، لكنَّ أشعة الشمس التي اصطدمتْ بوجهه جعلته يستيقظ ليجد نفسه نائماً على التلة.

***

استلقى على أقرب سرير قابله ما أن وصل المنزل، لم تصرخ **العازَّة** في وجهه؛ لأنها كفَّتْ عن ذلك عندما علِمتْ بجنونه من أحاديث جاراتها، ويبدو أن قلبها قد رقَّ له صارتْ تُدَلِّلهُ

وتغمره بالحنان لعلَّها تستطيع أن تنسيه سنين القسوة السابِقة، لكنه لم يعبأ بكلِ هذا.. هو الذي كان يتذوق الجحيم على يديها، إنما داوم على الخروج والاختلاء بنفسه.

ظل يُفكر -وهو مُستلقٍ على ظهره- في الحُلم الذي يبدو له كحقيقة ماثلة أكثر من كونه مُجرد حلم. وقبل ذلك نظرة الساحِرة، وضحكة الطيور، كيف له أن يفهم شيء كهذا؟ **"آه، يبدو أنني قد أُصِبتُ بالجنون فِعلاً! لكن، لا، لا، لستُ مجنوناً، فما سمعته كان حقيقة لا تقبل الشك! والعيون الكبيرة الناصعة البياض التي تسببت في إغمائي هي ذاتها تلك العيون التي رأيتها في الحُلم. كيف يا تُرى يحدث هذا الأمر؟ وهو شيء يُنافي المنطق! ما الذي عليّ فِعله؟ ما الذي عليَّ فِعله؟ حسناً سوف أذهب مساء وأغتسل في البُحيرة مِثلما فعلتُ البارِحة، وبعدها سوف أجلس على التلة لعلي أعرف ما الذي حدث"**.

مساءً نزل إلى البُحيرة واغتسل بمياهها، بعدها صعد على التلة مُنتظراً أن يرى مشهد البارِحة، لكن دون جدوى. وطوال تلك الليلة لم يظهر له أي شيء، حتى الطيور لم تكن موجودة.

لم ييأس وظل يداوم على فعله هذا لمدة شهرٍ كامل لكنه لم يرَ شيئاً. بعد انقضاء الشهر كان جسده قد أصبح هزيلاً ضعيفاً، وانتفخت عيناه واحمرتا من شِدة السهر، كما أنه قد أصابته الحُمى عُدة مرات لكنه ظلَّ يُجاهدها في سبيل الحصول على رؤية تريحه ويقنع نفسه بأنه لم يكن يهذي أو يهلوس حين رأى المرأة ذات الشعر الأسود؛ خاصة وأن أحلامه قد تضامنتْ معه وصدَّقتْ كلامه بأن أرته المشهد من زاوية أُخرى.

بعدما تخلَّتْ عنه البُحيرة وخبأت أسرارها، عاد لرُشده وتراجع عن قناعته، آمن بأن ما رآه في تلك الليلة ما هي إلا هلوسة وأضغاث أحلام. غير مُدرك بأنه عندما يبلغ الخامسة والعشرين من عُمره سوف يُولد طفلٌ في القرية، ورغم أنه سوف يُولد لأب وأم من أهل القرية، لكنه سوف يكون في الحقيقة ابنه هو، وابن تلك الساحِرة؛ وبذلك تتحقق نبوءة الطيور.

(٤)

عاش **موسى** حياة هادئة خلال السبع سنوات التي تلت تلك الأحداث، إلى أن جاء الشيخ **أبو قرون** مرة أُخرى إلى القرية،

وأقام فيها يوماً كامِلاً، وكما العادة فقد كان يوماً حافِلاً بالرقص والذِكْر، وخلاله أُغمي على **موسى** عُدة مرات جرَّاء دورانه الكثير؛ لأنه لم يستطيع تمالك نفسه أمام الموسيقى النابعة من ضربات الطبل وهمهمة **الدراويش**. موسيقى ملأته بمشاعِر لا يدري كُنهها، واستعصى عليه فهمها، وكل ما أمكنه فعله هو البكاء والدوران لكي يتخفف من ثِقلها.

في المساء، عندما رحل **الشيخ** كان **موسى** مُجهداً -وتعمَّد ألا يُذكره بوعده له بأن يأخذه معه-، ساقته خُطاه إلى البُحيرة ليغتسل من مائها ويزيل عنه التعب، وما أن وطئ ماءها حتى عاوده النشاط من جديد وازداد قوة، شعر بهذا الفارق الذي حدث له، لكنه لم يُهوِّل الأمر، وأخبر نفسه أنه من الطبيعي أن يجعل الماء جسد الإنسان المُرهق ينتابه هذا الشعور المُنعش. بعدها توجه نحو التلة وجلس مُتأملاً الفراغ العريض، وبعد لحظات توهَّجت البُحيرة، ورأى دوامة كبيرة تظهر قُرب الجزيرة، خرجت منها أسراب الطيور التي انتشرتْ سريعاً في البُحيرة وملأتها حتى آخرها، وقبل أن تنغلق الدوامة، أطلَّتْ الساحِرة، هذه المرة كانتْ واضحة المعالِم، ولفَتَ نظره بطنها الكبيرة المُتكورة، فأدرك حالاً أن الذي في بطنها هو ابنه؛ إنها

البذرة التي قذفها داخل رحمها. وحالاً تذكر الحُلم الذي رآه قبل سبع سنوات بكل تفاصيله.

في تلك اللحظة اختلط عليه الزمن وتبدَّل، لأنه عندما نظر إلى جسده، لم يكن هذا جسده الطبيعي الذي يعرفه؛ إنما ذاك الذي رآه في الحُلم -أي أنه قد صار في الخامسة والعشرين من عُمره أو ربما أكبر قليلاً-.

في البُحيرة اضطربتْ الطيور وبدأت بالصياح، وهي تتبع خُطى الساحِرة الآتية نحوه، حاول الهرب والصُراخ لكن جسده لم يُطاوعه، وبقي في مكانه. وقفتْ فوقه مُبللة بالماء بينما هو جالس يُحملق فيها، ثُمَّ انحنتْ نحوه حتى لامس صدرها العاري وجهه، سمعها تقول له: **"اشرب"**، فتلقف ثديها وبدأ يمتص حليبها إلى أن ارتوى، بعدها جلستْ أمامه، تحسستْ وجهه بأصابعها، ثم أدنته منها والتقتْ شِفاههما في قُبلة طويلة؛ قُبلة أنسته كل آلامه وشقاءه، قُبلة جعلتْ روحه وقلبه يثملان من فرط النشوة ويذوبان فيها، قُبلة جعلته يشعر بأنه صار عصفور، وطاف حول العالم كله، ثم -عَبْر

الدوامة- انتقل برفقة الساحِرة إلى عالمٍ آخر، عالم لم يشبه أي شيء قد سمِع به أو رآه قبل الآن، مكان وكأنه.. الجنة.

عند هذا الحد تركت شِفاهه، وتراجعتْ عنه، هو الظمآن المُلتهب الدواخل لإعادة القُبلة مرة أُخرى كي يدخل في ملكوت المحبة الذي تحمله بين شِفاهها، حاول أن يناديها طالباً المزيد لكنه لم يقو، وتابعها بظره إلى أن اختفت عبر الدوامة -التي ظهرتْ من جديد- تتبعها أسراب الطيور.

لم تُفارق أنفه رائحة جسدها، وأحسَّ بحضورها كأنها جالسة قُربه، طعم شِفاهها ظلَّ عالقاً في فمه، وعاودته سكرته مرة أُخرى، لوهلة حاول أن يطير ظناً منه أنه عصفوراً، لكنه أدرك عجزه واستدرك بأنه **موسى** الإنسان، **موسى** المجنون. ابتسم قائِلاً لنفسه: **"الآن فقط سوف أصير مجنوناً حقيقياً"**.

أشرقتْ عليه شمس الصباح، وبعثرت أشعتها حضور الساحِرة -التي فتنت قلبه وروحه- وكل ما صاحبها. لكنه لم يُبارح مكانه، ظلَّ يُفكِّر فيما حصل له، وبين الفينة والأُخرى يُغمض عينيه مُتخيلاً شُربه من ثديها، وطريقة دنوها منه وتقبيلها شِفاهه،

إلى أن غربتْ الشمس من جديد، وكلما أحكم الظلال قبضته كان حضور معشوقته يكبر، يملأ المكان، ويملأ كيانه.

(٥)

بعد تلك الليلة التي تصوَّر أنه قد دخل فيها الجنة، وبعد تذوقه لحلاوة وعذوبة شِفاه الساحِرة، انفصل عن الواقع الذي يعيشه وتخلى عنه، نبذ البشر الذين أطلقوا عليه المُسميات والتصنيفات التي تجعله غريباً عنهم، ولا يشبههم، وكأنه ليس فرداً من بني جنسهم، مُفضلاً السُكنى في خياله، ومُستحضراً تلك اللحظات القليلة التي جعلته يطير ويطوف العالم.

بعد تلك الليلة ظلَّت تأتيه البُشارات، وكثُرت الرؤى التي تُخبره بأنه **المُختار**، وأنه هو من سوف يجلس على عرش العالم الآخر ويحكم سوياً رِفقة الساحِرة.

ولأنه كان حالِماً ومُشتاقاً لكي يرى رؤاه تتحقق، ولأن حضور معشوقته كان يتجدد كل ليلة؛ إذ يكفي فقط أن يُغمض عينيه ويستحضر صورتها حتى يبدأ جسده في التفاعل وعيش

التجربة من جديد كأنها تحدث الآن، لم يستشعر مضي الزمن وتقدمُه، إلَّا حينما أتت اللحظة التي كان يتنظر حدوثها.

ففي الليلة التي وصل فيها سِن الخامسة والعشرين من عُمره، وكان القمر بدراً وقتها مُنيراً بضيائه كل الظُلمات، انتبه فجأة إلى أن جسده قد صار تماماً مثلما رآه قبل اثنا عشر سنة، ولاحظ للتغيرات التي طرأت عليه؛ إذ استطال شعره حتى لامس خِصره، واستطالتْ أظافِره، وامتلأ جسده بالقوة وبرزت عضلاته.

في تلك اللحظة نزل عليه الوحي ليصف له خطواته القادمة؛ وحالاً هرول نحو البُحيرة. عندما دخل الماء تشابكتْ أصابع قدمه ويديه بطبقة رقيقة من الجلد مكَّنته من السِباحة بمهارة وسرعة.. وشق طريقه مُتجهِا نحو الجزيرة، نحو المكان الذي ظهرتْ فيه الدوامة سابقاً، وما أن وصل حتى ظهرت الدوامة من جديد كي تأخُذه، ودون تردد غاص داخلها.

أطلَّ على عالمٍ آخر، على بُحيرة أُخرى مليئة بالطيور. أخيراً.. بعد اثني عشرة عاما تحقق حُلمه. وتكرر المشهد الذي رآه في منامه؛ وجد معشوقته في انتظاره، واحتضنته بلهفة واشتياق، قبَّلتْ

شِفاهُه، وتذوَّق طعم فمها مرة أُخرى، مذاقه الذي أسكره ودوخَّه، ثم شرعا في رقصتهما المُقدسَّة، وقذف بذوره داخل رحِمها. كانت الطيور تطوف فوقهما -أثناء رقصهما- وهي تصيح: **"ها قد أتى الفلَّاح يحمل البِذرة، وها هو يحفر لها الأرض ويقذفها بداخلها؛ الأرض التي سوف تُسقى من مياه البُحيرة حتى تنمو البِذرة وتكبر"**. وتفرغتْ من حولهما عندما ابتعدت المرأة عن **موسى**، وقبل أن تختفي من أمامه قالتْ له: **"لا تعُد مرة أخرى إلَّا بعد عام من الآن، أي عندما ألد هذا الذي في بطني"**. هزَّ راسه موافقاً ومُستسلماً لكلامها، وإن كان لا يود فُراقها أبداً، لكنَّ السنوات السالِفة علَّمته كيف يستطيع استحضارها وقتما شاء، وعيش اللحظات وهو مرتمٍ في أحضانها.

وقبل أن تختفي من أمامه استدرك أمراً وسألها: **"كيف سوف آتي إلى هُنا مرة أُخرى؟"**. لكنها لم تقل شيئاً واختفت عن أنظاره.

بعد لحظات بدأ الماء يفور قريباً منه، ثم أحدث دوامة لولبية عميقة، عرِف أنه الطريق الذي سوف يُرجعه لعالمه، فأغمض

عينيه بيأس وعدم رغبة في العودة ودخل الدوامة. ولَّما فتحهما من جديد وجد نفسه مُستلقٍ على التلة، وقد رجع شعره وعضلات جسده وكل شيء لحالتهم الطبيعية.

بعد تسعة أشهُر، في الليلة التي أتى فيها المخاض للساحِرة، أتى أيضاً لامرأة في قرية **التارك عرضو**، ولَّما خرج الجنين تنفَّست المرأتين الصعداء.

لقد وُلِدَ طفلاً واحداً لامرأتين، أو في الحقيقة هو ابن الساحِرة لكنَّ الطيور هي من حولَّتْ البذور التي قُذِفت بداخلها لرحم امرأة من نساء القرية.

وعندما تلقَّى **موسى** -بعد عامٍ- الإشارة بالعودة، أخبرته معشوقته بأن الابن قد وُلِد لكنه لن يتعرف عليه الآن، إنما في الوقت المناسب. لم يحاجها في ذلك، لأنه لم يتصَّور قط أن يكون أب.

من يومها ظلَّ **موسى** ينتقل بين العالمين على الدوام بعدما نُصِّب حارساً، وكلما حاول أحد سُكان القرية صيد الطيور التي يرعاها لقي حتفه على يديه. إذ يلقي عليه القبض ويقوم بإخفائه عبر رميه داخل الدوامة للذهاب إلى العالم الآخر، وهُناك تقوم الساحِرة بحبسه داخل شرنقة، وبعد ثلاثة أيام يتحول لسرب من الطيور.

كل الطيور التي تعيش في ذلك العالم هي أُناس أصابتهم لعنة الصيد، هذه اللعنة قادتهم في النهاية لأن يكونوا هم الطيور التي افتتنوا بقنصها وقتلها.

الرقصة المُقدسة

(١)

كل من نشأ في القرية يُلقَّن منذ الصِغر بأن لا يقترب من البُحيرة مساءً أياً كان الداعي لذلك، ويُعد هذا الفِعل من تابوهات القرية المُحرَّمة، وكل من يقترفها من الأطفال يلقى عِقاباً أليماً؛ إذ يُجلد على بطنه وظهره، ولا يُترك حتى يصرخ على الملأ بأنه لن يُكرر هذا الأمر مُجدداً.

لذلك ورغم المهارة العالية التي يتمتَّع بها **عبد القادر** في التصويب، بل يُقال إنه لا يخطئ أبداً؛ وقد تعلَّم ذلك من **جده** و**والده** الذَيْن كانا من أمهر الصيادين في المنطقة. إلَّا أنه لم يقترب من البُحيرة قط، ولم يُفكِّر في ذلك، لأنه ذاق الويلات عندما كان طِفلاً، وأُلهِب جسده بالسياط لتسكُعه قُربها مساء.

ظلَّ **عبد القادر** دائم التردد على المشاريع الزراعية لأنها أيضاً مليئة بالطيور، خاصة طيور القمري التي يحبها. لم يكن يستسيغ طعام طائر غيرها، وكثيراً ما يأتي خالي الوفاض دون أن يصطاد طيوراً أُخرى مثل **الجبركل** و**القطا** رغم توفرهما.

لذلك لم يستطع تحمُّل اختفاءها فجأة وانتقالها من المشاريع إلى البُحيرة، وهذا أمر لم يحدث منذ أن عرِف الصيد.

في أيام الأخيرة كثر تردده على البُحيرة، كان يأتي عصراً مُرهقاً وقد يئس من البحث في المشاريع، ويقف على شط البُحيرة يُراقب طيور القمري التي تظهر من العدم وتحط على الجزيرة. يمتلئ جوفه حسرة، ويهمس بتألم: **"كيف الوصول إليكِ أيتها الشقية، لقد طال شوقي للإمساك بكِ ووضعكِ بين أكُفِّي، ولنتف ريشك البهي الألوان. إن لم أتذوق لحمكِ قريباً لن أرتاح أبداً، ولن يهدأ بالي"**. ولا يمنعه من الظفر بها إلا مخزون تاريخه الطفولي المليء بالويلات جرَّاء اقترابه من البُحيرة، والحكاوي التي نسجها أهل القرية حولها، وإن لم يشهد -طوال حياته- حدثاً يدُل على صِدق حكاويهم.

في البدء كان يصبِّر نفسه ويُهدئها بأن طيور القمري سوف تلوح للعيان قريباً وترجع لسابق عهدها. انتظر يوم.. يومان.. أربعة أيام.. عشرة.. شهرا، دون أن يلوح بصيص أمل. وهو الذي أدمن لحمها كل يوم يمر عليه دون أن يتذوقها يُعَد عذاباً يلتهم قلبه. عزاءه الوحيد هو اللجوء إلى خياله؛ فيستمتع

بنتف ريشها، ويسمع صوت شواءها، ومن ثم التهامها، وتذوُّق طعمها الذي تحفظه ذاكِرته جيداً والتلذذ به.

لكنَّ الحقيقة دائماً تهزم الوهم؛ فبينما توقف ذات يوم على التلة يتأمل شكل البُحيرة مساءً، أغواه مشهد أسراب القمري وهي تلهو رِفقة الوزين والبجع، من هنا كان المشهد واضحاً، وسال لُعابه لطعمها اللذيذ.

في تلك اللحظة نسي كل شيء، وأنزل عن كاهِله كل تاريخه الطفولي، كل الأقاويل والتحذيرات؛ تناول بندقيته وعبأها بالذخيرة، ثم اتجه نحو البُحيرة، نزع ملابسه على الشاطئ ودخل الماء.

أُغمي عليه عندما التقت عينيه بعينيّ **موسى** التي كانتْ تحمل وهجاً غريباً جعله يفقد وعيه، فحمله الأخير وغاص به داخل الدوامة.

قُرب شاطئ البُحيرة الأُخرى، وعلى أفرُع أشجار الطلح والهشاب قامتْ الساحِرة بنسج العديد من الشرانق، في

إحداها أُدخِل **عبد القادر** وتكوَّم مثل جنين في رحِم أُمه. وبعد ثلاثة ليالٍ اكتمل تحوله، وخرج من الشرنقة أربعة عشر طيراً من فصيلة القمري.

بعدما تحول **عبد القادر** لطيور القمري لم يُسمح له في أيامه الأولى بالذهاب مع أسراب الطيور الأُخرى التي تظهر -عادة- عصراً في البُحيرة الواقعة شرق قرية **التارك عرضو**، وظل حبيس عالمه الجديد لأكثر من شهر، خلال هذه المُدة كان يستكشف المكان الذي يقطنه، وقد وجده محدود جداً؛ إذ ينتهي بانتهاء البُحيرة. لم يستطع الذهاب أبعد من ذلك، وكلما حاول كان يجد نفسه يعود لنقطة البداية.

بعد مرور شهرين كاملين أصبح مؤهلاً لأن يُرافق السرب، وما أن أطل على عالمه الأول، حتى أصابه الحنين وتملَّك قلبه، رغم أن **الساحِرة** تعمدت حبسه كل تلك المُدة كي ينسى حياته السابقة لكن يبدو أن ذاكِرته لم تتلاشى كُلياً وارتباطها القوي بالمكان جعلها تعود ما أن رأى معالم منطقته الأولى. وحالاً وسط إغواء الأشواق الجارفة التي تملَّكت الطيور الجديدة، وعلى

حين غفلة من **الساحِرة** حلقت سبع قمريات، اتجهن نحو الغرب، وابتعدن عن البُحيرة، مررن بالقرية، ومنها إلى لمشاريع، هناك أسرعن يلتقطن حبات الذُرة بشره ولذة غافِلات عن الخطر الذي كان يتربص بهن، إلى أن دوى صوت الطلقة في رؤوسهن، وأحسسن في الحال وكأن طرفاً منهن قد قُطع، جزعن وحلقن بفزع عائدات نحو بقية السرب.. الذي بدوره انتفض وملأ السماء صياحاً حزيناً لفقده رِفاقه، ولفقد طيور القمري الجديدة جزءاً من جسدها.

(٢)

عندما أتتْ فتاة صغيرة تحمل قارورة تُريد زيتاً، قام **حمد** كي يُلبي طلبها، واستأذن **مُهند** مُتعلِلاً بأن لديه بعض الأشياء التي عليه إنجازها، لكنه خرج قاصداً الخلاء، باحِثاً عن السلوى فيه، ولم يجدها إلَّا في استحضار الأيام الخوالي.

رافقته **ملاذ** تؤنسه وتُدغدغ مشاعره، وأحسَّ بطيفها يمشي قُربه، ثم يقفز مُتغلغلاً في تفكيره وأحشاءه. استنشقتها أنفه وسرت في أنفاسه، انتفض قلبه يصرخ باسمها، وروحه الثكلى نزفتْ ألماً وحُرقةً لفراقها.. وشوقاً إليها.

استحضر بداياته، وضحك بفرح وسذاجة عليها، ثم ترقرقتْ عيناه وبدأ يبكي عندما تذكَّر خاتِمته.

"آه يا ملاذ، كيف طاب لكِ أن تتركينني بتلك البساطة؟ أن تهوي بي من أعلى الجِنان إلى الدرك الأسفل من الجحيم، دون أن تكترثِ أو تهتمي لذلك أبداً، وأنتِ تعرفين تعلُّقي وهوسي بكِ؟ كيف قسى قلبكِ عليّ وأنا العطوف عليكِ، الداعم لكِ على الدوام؟ والأَمَرّ من كل ذلك أنكِ لم تواجهينني أبداً، بل أرسلتِ غيركِ كي يُخبرني -ببساطة- أنكِ لم تعدِ ترغبين بي؛ لأنك سوف ترتبطين برجلٍ آخر. بالطبع لم أصدق كلامها في البدء، لكن أيام قصيرة بعد ذلك كانتْ كفيلة بأن تجعلني أرى الحقيقة المُرَّة. من يومها صِرتُ شخصاً آخر غير الذي أعرفه، بينما كنتِ أنتِ ترفلين في النعيم، مُتناسية بأن القدر يُخبئ لكِ الكثير، وخيراً فعل هذا القدر، إذ أنزلك وهوى بكِ كما هويتي بي، لا.. بل إنه أمعن في إذلالك. تعلمين أنني لستُ سعيداً بمصابك، لكنكِ تستحقين كل هذا وأكثر".

ينقطع تكفيره عندما يصل شجرة هجليج عملاقة قائمة وسط إحدى الحقول، يجلس تحتها، يُغمض عينيه ويبتسم عندما

يرى من بعيد **ملاذ** آتية نحوه وحقل الذُرة يغطي كامل جسدها إلا قليلاً. تصله وقبل أن تجلس قُربه تضع أسفل ذقنها وتتفرس تفاصيل وجهه الجميلة، ثم تقول له بعد لحظات: **"حبيبي يا حبيبي، أيُّ طينة تلك التي خُلقْتَ منها! ومن أي السماوات هبطتْ على قلبي! إنك أجمل وأشهى من في هذا الوجود. عليك أن تعلم أنك الشراع الذي يجعل قلبي ينبض ويتحرك، وأنك الطاقة التي تمده بالنور. أنت الماء الذي يجعله يُزهر، أنت فراشتي وأنا زهرتك. وخيراً تفعل إن امتصصت رحيقي".** ثم ترتمي في أحضانه، ويفعل مثلما طلبتْ منه؛ يمتص رحيق شفتيها.

يفتح عينيه اللتين بللتا خدوده بالدمع، ويهذي بحُرقة، وبصوتٍ مُتحشرج: **"لم أظن أن ذاك الحب سينتهي، لم أظن أنكِ سوف تتخلين عني بتلك السهولة، أنتِ التي كنتِ مهووسة بي، ولا يهدأ لكِ بالاً إن غبتُ عنكِ يوماً واحداً".** يصمتْ قليلاً، وبعد تفكُّرٍ في الأمر يجيب على نفسه **"أم أنكِ نسجتِ كل ذلك ببراعة حتى أراه وأُصدقه! كيف غفلتُ عن هذا الأمر! كيف انخدعتُ لكِ بهذه السهولة! يا لي من ساذج! ويا لكِ من كاذبة لعينة!".**

ظلَّ جالساً تحت شجرة الهجليج يُقلِّبُ دفاتر ذكرياته إلى أن غابتْ الشمس، ثم ذهب بعدها إلى التلة ليرى صديقه **موسى**، لكنه وعلى غير العادة لم يلتقِه هُناك. **"أين ذهبتَ أيها المجنون؟ وكما أعلم، ويعلم الجميع، ليس لك وطناً غير هذه التلة!"**.

انتظره حتى مُنتصف الليل دون أن يظهر له أثر، بعدها قام **مهند** ورجع إلى منزلهم.

(٣)

ما لا يعرفه **مهند** هو أنه في آخر مرة التقى فيها **ملاذ**، لم يكونا وحدهما مثلما كانا يعتقدان، إنما كان هُناك ثالث يتربص بهما، ويُراقب أفعلاهما من بعيد؛ هذا الثالث كان **والدها**. ولأنه كان خائفاً من أن يفتضح أمر ابنته -لأن هذا سيجلب له العار ويحط من مكانته بين أهل القرية- فضَّل التواري والانسحاب، ليتركهما يواصلان ما يفعلانه.. وإن كان يغلي ويكاد أن ينفجر من الداخل.

والدها الذي ألِفَ أن يذهب مع ابنته إلى الحقل ويأتيان معاً طوال سنين مضتْ، لم تُساوره أي شكوك عندما كانتْ تُخبره بأنها سوف تتأخر لكي تعمل أكثر وبذلك يكونا قد قطعا شوطاً كبيراً ووفرا زمناً، لكن عندما تكرر الأمر كثيراً بدأت الوساوس تنهش قلبه وتفكيره.

وقبل أن تحل الكارثة على العاشقين، خرج **والدها** في زمنه المُعتاد وخادعها بأنه سوف يسبقها إلى المنزل، لكنه عندما توارى عن أنظارها جاء راجعاً سالكاً طريقاً آخر حتى لا تراه، وبدأ يحبو نحو شجرة الهجليج -التي سمع أصواتهما آتية منها- دون أن يصدر صوتاً حتى لا يُثير انتباههما .

عندما رجعتْ **ملاذ** لمنزلهم، لم تجد أحداً غير **والدها** في انتظارها، وقد احتقن وجهه واحمر من شِدة الغضب، أمسكها من يدها وجرَّها سريعاً نحو الداخل، وبدأ يجلدها -قبل أن يقول لها أي شيء-، تفاجأت بالأمر وحاولتْ الهرب والصراخ لكنه أمسكها وكمم فمها بقطعة ثوب بالٍ وواصل نهش جسدها بالسوط إلى أن أُغمي عليها. عندما أفاقتْ وجدت يديها مربوطتان

خلف ظهرها وفمها مُكمم بذات القطعة، وأمامها يجلس **والدها**. اتسعتْ عيناها، وأصابها الهلع، وبدأتْ تزحف نحو الخلف عندما قام **والدها** واقترب منها، لم يمسَّها.. بل جلس أمامها، نظر ملياً في وجهها، ثم تفَّ فيه، وهو يقول:

- لم أتصور يوماً بأنكِ سوف تخونين ثِقتي مع هذا الوضيع. كيف سوَّلتْ لكِ نفسكِ فِعل ذلك؟ ألم أُحسن تربيتكِ.. ها! ما الذي ينقصكِ؟ لماذا تُريدين أن تجلبي العار والخزي لي ولأُسرتك؟ ها.. أين عقلكِ.

تفَّ مرة أُخرى في وجهها، وبدأ يركلها بقدميه، بينما هي تتلوى تحته.

في المساء أخبرها بأنها لن تغادر المنزل مرة أُخرى، ستظل حبيسة داخل جُدرانه إلى أن يقوم بتزويجها، وأضاف: **"لن تتزوجي برجل من القرية، إنما سترحلين بعيداً.. بعيداً عنَّا وعن عالمك الذي تعرفينه، حتى لا تتسببين في إحداث مشاكل لاحقاً وتضعيننا جميعاً أمام نيران المُجتمع"**.

لم يقربها أحدٌ في تلك الليلة -التي لم تذق فيها طعم النوم- لأن **والدها** حذر **والدتها وأُختها** من ذلك. وقد علِمتْ جيداً بأن كل شيء بنته قد تلاشى وانتهى إلى الأبد.

تلك الليلة كانتْ الأطول والأشد عليها؛ إذ ظلَّتْ شاردة بأفكارها، تُحاول أن ترتق ثوب عالمها الوردي الذي بدأ يتمزَّق أمامها، وإن أصابها اليأس من أن يعود كما كان، بل في قرارة نفسها أدركتْ بأنه اختفى للأبد. وهذه الفِكرة رغم مرارتها ورغم وضوحها، إلا أنها كانتْ كافية لأن تصيبها بالذعر، وتجعل قلبها يتوقف عن الخفقان. **"آه يا قلبي، لِمَ كُتِبَ لنا هذا الشقاء، ونحن الذين لم نقترف ذنباً غير أننا قد حلمنا، حلمنا بعالم يجمعنا بمن نحب ونهوى، عالم صغير تملأهُ ضحكاتنا البريئة وحكاوينا، هل يُعَدُّ ذلك خطأً؟ هل حقاً خُنتُ ثِقة والدي بفعلي هذا؟ هل سأجلبُ لهم العار وأنا التي كنتُ أبني في بيتي وأُشكِّلَهُ بالطريقة التي أُريدها؟ كيف سأجلبُ لهم الخزي وأنا التي أرادتْ أن تعيش حياة استثنائية، حياة تشبهني وحدي، حياة أختار أفرادها بدقة وعناية كي أتجنَّب الوقوع في خطأ العيش مع رجلٍ لا يشبهني ولا أشبهه! هل الحُلم في هذه القرية جريمة يُعاقب مُرتكبها بالضرب والنفي؟ كيف**

ستُطاق هذه الحياة المُملة إن لم نجعلها تُزهر وتتلون بأحلامنا وآملانا!".

تشعبتْ أفكارها وتساؤلاتها وطافت بها بعيداً، إلى أن أشرقتْ شمس الصباح الجديد. صباح جديد انفطر فيه قلب **مهند**، وأدخله في الهذيان والتيه الأبدي؛ إذ قامت **والدتها** بإرسال أُختها الصُغرى -سِراً- له كي تخبره **بأن ملاذ لم تعد تُريده في حياتها، بل هي تكرهه، وعليه الابتعاد عنها بعد الآن، لأن موعد زواجها قد اقترب. كما أنها كانت تقضي معه وقتها وتتسلى به ليس إلَّا.**

***

بعد ثمانية أيام من تلك الأحداث أخبرها **والدها** بأنه قد عقد قرانها، وستصير زوجة لصديقه "**الطيب**" الذي يسكن قرية أخرى تبعد عنهم مسافة نصف يوم، صديقه الذي لم تراهُ قط، ولم تسمع عنه شيئاً قبل الآن، لكن ليس بيدها حيلة تفعلها، واستسلمتْ للأمر، وهي تُردد لنفسها: **"أياً كان شكله أو عُمره، لن أشغل بالي بهذا الأمر، ولن أهتم به، لأنه لم يعد هُناك شيء يهم بعد الآن!".**

وبعد أسبوعين آخرين تم الزواج.

لم تألف الحياة في بيتها الجديد، ولم تستطع أن تعيش مع رجل لا تعرف عنه شيئاً؛ ما الذي يُحبه؟ ما الذي يكرههُ؟ ما الذي يُضحكه؟ ما الذي يُغضبه؟ ... الخ. إنه زوج تجهل عنه كل شيء. وفوق كل هذا فهي مُتعلقة **بمهند** حد الجنون، ولا يحتل تفكيرها ويُسيطر عليه أمر غيره، وكلما مرَّ عليها يوم بدون رؤيته تزداد روحها إظلاماً، ويزداد وجهها شحوباً. تستقبل زوجها بابتسامة صفراء باهتة، ولا تُحدِّثه إلا لِماما، إذ تكتفي بالرد على أسئلته فقط، لكنها لا تُبادر بالكلام أبداً. وأيقنتْ تماماً بأنها تقضي أيامها الأخيرة؛ قد تطول أو تقصر، لكنها في قرارة نفسها كفَّتْ عن العيش، وطلب المُتعة في هذه الحياة أو طرق أبوابها.

لم يدر زوجها ماذا يفعلُ معها، وأدرك من تعاملها، وشرودها الكثير، وبكاءها مُنتصف الليل عندما تظن بأنه قد نام، بأنها لا تطيق العيش معه، بل تيقَّن بأن قلبها مُتعلِّقٌ بأحدٍ غيره. لذلك وبعد مضي خمسة أشهُر من زواجهما، وبينما هما

جالسين مساءً في فناء بيتهما الصغير المُكون من غرفة واحدة، فاجأها بسؤال حاول التهرب منه كثيراً لكنه لم يجد بداً من ذلك:

- **ملاذ**، هل تحبين شخصاً آخر من قريتك؟

وكأنها انتظرتْ هذا السؤال دهراً كاملاً، أجابتْ من فورها:

- نعم، أُحب شخصاً آخر، وقد تزوجتُكَ غصباً، مُجبرة على ذلك.

تألم قلب الزوج الذي لم يتوقع هذه الإجابة الصريحة، وإن كان موقناً بها، وصمت مسافة يُفكِّر فيما قالته، بعدها سألها:

- هل تريدين مواصلة العيش معي، وسوف أُعينك على نسيان الماضي، أم تودين الطلاق؟
- أريدُ الطلاق.

مرة أُخرى تؤلمه إجابتها، لكنه يتفهم وضعها، لأنه مرَّ بتجربة شبيهة بها سابقاً. فقبل خمسة عشر عاماً، أي عندما كان في عُمر العشرين، أحبَّ فتاة وأراد أن يتزوجها، لكنَّ **والديه** رفضا ذلك رفضاً قاطِعاً، وأجبراه على الزواج من ابنة عمه، لم يكن

أمامه شيء غير القبول؛ لأنه إذا رفض عرضهما فإنهما لن يرضيا عنه أبداً، فدخل عليها مُكرهاً. لم يستطع الاستمرار معها طويلا -هي التي ملأت حياته نكداً وبؤساً-، وطلقها بعد سنتين من زواجهما. بعدها لم يُفكِّر في الزواج أبداً، إلى أن اقترح عليه صديقه أن يُزوجه ابنته مُعللاً ذلك بأنه سوف يربط علاقتهما أكثر ويقويها، فقبل خوض تجربة أُخرى.

بعد مُحادثتهما القصيرة تلك وقع الطلاق بينهما، وأرجعها إلى قريتها مرة أُخرى، مُعتذراً من **والدها** لحدوث ذلك، ولم يُفصح له عن شيء مما دار بينهما.

وبعدما غادر زوجها السابق، خنقها **والدها** بيده وهو يصرخ فيها:

- لا بُدَّ وأنكِ السبب وراء هذا، لأنكِ شيطانة لعينة. لقد حاولتُ أن أجعلكِ تفخرين بنفسك، بأن يكون لكِ بيتاً وأبناءً؛ لكن يبدو أنكِ تُريدين العيش ذليلة صاغِرة، وسوف تعيشين كذلك.

صمت قليلاً ثم أضاف:

- لن تخرجي من هذا المنزل بعد الآن .

تركها عند هذا الحدّ، وخرج من المنزل إلى الشارع كي يُنفِّس عن غصبه.

انهارتْ هي باكية من التعامل المتوحش، ولم يُخفف عنها إلا حضن أُمها الدافئ.. التي شاركتها البكاء أيضاً. لكن ما آلمها أكثر وفطر قلبها هي الأخبار التي عرفتها عن حبيب قلبها **مهند**، أنه قد أصبح زاهداً في مُخالطة البشر منفصلاً عنهم، مُفضِّلاً العيش في الخلاء.

(٤)

عندما أطلَّ **موسى** على العالم الآخر وجد الساحِرة في انتظاره، تقف شامخة بجسدها المشوق، حُلوة وشهية كثمرة ناضجة. ما أن لمحته حتى تزينت شِفاهها بابتسامة عريضة، رأى الضحكة والفرحة داخل عينيها، وحالاً خرج صوت عال من جوفها، صوت يعني بداية التزاوج. بهذه الطريقة كانتْ تحفظ

الطيور من الانقراض، وكلما نقص منهم واحد يُعوَّض بالعشرات.

في عُرس جماعي، وفي العراء بدأ كل ذكر يرقص رقصته المُقدسة مع أُنثاه.

اقترب **موسى** أيضاً من أُنثاه، والتصق بها، ضمَّها عليه وشم رائحة جسدها الشهي، فاقشعرَّ بدنه وسرتْ فيه صعقات كهربائية، ازداد نبض قلبه وأحسَّ بالحرارة تسري داخل شراينه، اضطربتْ أنفاسه، والتهب كل شيء فيه، قبَّل شِفاهها بنهم، وفعلتْ هي بِشفاهه المِثل، ثم انتقل لعُنقها، فـ صدرها، ثم... بدأ يُراقصها كما لم يُراقص أي إنسان امرأة قط، كانتْ تتلوى وتضمه عليها مثل ثُعبان يطوق جسد فريسته، وضج فضاء البُحيرة بتأوهاتهما.

رغم أن **موسى** كان يفعل هذا الأمر سنوياً؛ أي كلما حان موعد التزاوج، إلَّا أنه في كل مرة كان يحس بلذة مُغايرة للتي سبقتها، وتظل هذه اللذة عالقة في ذِهنه -يعيشها بكامل تفاصيلها كلما استحضر بخياله ما فعله- إلى أن تمحوها الرقصة القادمة.

موسم التزاوج يستمر لسبعة أيام، سبعة أيام تمثل النعيم بالنسبة **لموسى**، لأن بعدها يُحرَّم عليه الاقتراب من أُنثاه، اللهم إلا أن يراها من بعيد، ويُحادثها، لكنه لا يستطيع لمسها أبداً. لذلك عندما يأتي لهذه النشوة الروحية فإنه يعيشها بكل تركيزه وانتباهه كي يحظى بأكبر مُتعة، ويمتلئ بالتفاصيل التي تعينه لقضاء بقية أيام السنة القادمة.

بعد سبعة أيام من اختفاءه، وبينما كان **مُهند** يجلس ليلاً على التلة العالية، إذ به يرى شبحاً قادماً نحوه، آتياً من البُحيرة. انتابه الخوف ووقف مُتأهباً حتى لا يُفاجئه القادم، لكنه عندما اقترب منه ولدهشته، وجد أن هذا صديقه **موسى**.

- **موسى**! أين كُنت يا رجل، وأنا الذي لم يترك مكاناً لم أبحث فيه عنك؟

اجتر **موسى** نفساً طويلاً قبل أن يقول:

- آسف لأنني جعلتك تتكبد مشقة البحث عني. لقد كُنتُ مشغولاً بجمع مخزوني الذي يقيني شدة الأيام القادمة.

- أي مخزون هذا؟
- مخزون ذِكرياتي.
- ماذا؟
- دعك من هذا الأمر، الوقت ليس مُناسباً لشرحه.
- لا، قُل لي حالاً، فأنا كلي أُذن صاغية، وأستطيع الجلوس معك حتى الصباح.

لم يقل **موسى** شيئاً ونظر في وجه **مُهند** مُبتسماً من هذا الرد، وقبل أن يُحرِّك عينيه بعيداً عنه لفتَ انتباهه الشبه الشديد بينه وبين **الساحِرة**، فشرد بعيداً وهو يُصارع موج التساؤلات التي أعيتْ عقله، شرود لم تفلح جهود صديقه وإلحاحه عليه كي يُجيبه في إخراجه منه.

(٥)

قبل سبعة عشر عاماً، أي عندما وُلِد **مُهند**، استبشرتْ به أُمه خيراً وعدَّته من الصالحين؛ فأثناء حمله لم تتألم أو تُعاني أياً من أمراض الحوامِل، ولَّما أشرق على الدنيا لم يكن يشبهها أو يشبه أباه؛ وهذه كانت إشارة ثانية لها بأن تعدَّه من الصالحين. لكن

ما كانت تجهله هو أن ملامحه تشبه **الساحِرة** التي لم يرها أحد غير **موسى**.

بعد يومين من ولادته رفض الرضاعة من ثديّ **والدته** التي لم تدر سبباً لذلك، وقد فشلت كل مُحاولاتها في جعله يمتص حليبها سُدىً. وفي المساء، بعد أن غابت الشمس دخلت عليهم شاة -بيضاء اللون- ضرعها ممتلئ باللبن، في البدء حاولت الأُم أن تطردها، لكنَّ الشاه هرولت نحو الطفل، الذي بدروه بدأ يصرخ ما أن وقفت قريبةً منه. استغربتْ الأُم هذا الفِعل الغريب؛ إذ كيف لشاه دخيلة أن تفعل ذلك؛ اللهم إلَّا إذا كانتْ مُرسلة، وأنها من ستنقذ ابنها من الهلاك المُحَتَّم إن لم يرو ظمأه ويُطفئ جوع بطنه بحليبها. لم تملك خياراً غير الذي جال بخاطرها، فقامت بتقريب ابنها من الضرع الممتلئ، وحالاً بدأ الطفل الجائع يمتص اللبن بنهم.. إلى أن ارتوى. بعد ذلك غادرت الشاة، لأن مُهمتها قد أُنجزتْ على أكملِ وجه، وكانت هذه الإشارة الثالثة للأُم.

في كلِ مساء كانت تأتي الشاه لتُرضِع الطفل، واستمرت لعام كامل، أي حتى فُطِم **مهند** وأصبح يعتمد على الخُبز بدلاً عن اللبن، بعد ذلك اختفت الشاة، ولم يُرَ لها أثر أبداً.

كثيراً ما حاولت **والدة مُهند** أن تتبعها، لكنها لم تُفلح في ذلك، وكانت الشاة تختفي منها في الظلام فتفقد أثرها.

ما لا تعرفه هو أن الشاة عندما تخرج من القرية، تنطلق كالسهم نحو البُحيرة، وتختفي بداخلها.

***

عندما يئس **مهند** من إخراج صديقه **المجنون** من الصمت الذي دثَّر به نفسه، تركه وتوجه نحو القرية، وعندما استلقى على سريره نام سريعاً.

رأى في المنام رجُلاً مفتول العضلات، له شعرٌ طويل يقف على التلة، ثم يقفز عالياً ويهبط في البُحيرة، بعدها تبدأ مياه البُحيرة تغلي وتكْبُر أمواجها، مكونة دوامة ضخمة تحت رجليه وتبتلعه، ليطل على بُحيرة أُخرى مليئة بالطيور. ورأى أيضاً امرأة غاية في البهاء والجمال تقف وحيدة، شاردة الذهن،

دون تلحظ وجود من حولها، فيأتيها الرجل مفتول العضلات من الخلف ويضمها عليه، وكأنها كانت في انتظاره، فإنها تُغمض عينيها ما أن يلمسها وتبتسم، ثم تلتفت نحوه وتبدأ في تقبيل شفاهه بنهم، بعد ذلك يغوصان في الماء ويختفيان عن أنظاره. يتبدل المشهد ويرى بطن المرأة قد كبُر وتكور، لأنها تحمل جنيناً في أحشاءها، وشعر بأنه هذا الجنين.

انتابه الخوف عندما أدرك حقيقة أنه لا ينتمي لأبناء القرية، وأنه ابن امرأة أُخرى، واعتصر قلبه حزن كاد أن يُمزَّق أحشاءه.

في الصباح آلمه قلبه وسيطر الحزن عليه، لم يدر سبباً لذلك، وقد كان الحلم الذي رآه البارحِة قد اختبأ بعيداً في ذاكِرته، لدرجة أنه لم يستطع تذكر أياً من تفاصيله.

(٦)

بعد الظُهر كان **مهند** يتمشى في شوارع القرية كي يُزيح عن كاهِله الملل والحزن الذي ما يزال مُسيطراً عليه. أثناء تجواله هذا قرر الذهاب إلى صديقه **حمد**، ومشى قاصداً السوق، لكنه

غيَّر اتجاهه عندما أخبره أحد الذين التقاهم في الشارع بأنه قد رأى اثنين من طيور البجع قابعة في المشاريع، تحديداً قُرب شجرة الهجليج -وهي ذات الشجرة التي كان يلتقي فيها محبوبته قديماً-، لم يُصدقه في البدء لأن البجع عادة يحط في المياه فقط أو قُربها، لكن أن يكون في المشاريع ذات الأرض القاحِلة، فإن الأمر شِبه مُستحيل، غير أن الرجل حلف له بالله مؤكداً كلامه. عندها هرول **مهند** نحو منزلهم، أخذ بندقيته وخرج.

وبالفعل كان كلام الرجل صحيحاً، رغم أنه وجد طائراً واحداً وليس اثنين كما أخبره. عبأ بندقيته بالذخيرة واختبأ سريعاً، وبدأ الزحف نحو جزع شجرة الهجليج الكبير الذي كان كافياً لكي يُشكل له غطاءً جيداً. عندما وصل جزع الشجرة رأى الطائر يقف على رجلية بهدوء أمامه وفي مدى الطلقة، ويبدو أنه لم يستشعر وجوده.. لأنه كان غافِلاً عنه تماماً. لم يُصدِّق حظه السعيد الذي أخرج له هذا الطائر من البُحيرة وأتى به إلى هذا المكان النائي ليكون وجبة عشاءه. وضع البندق على كتفه الأيمن وأخذ وضعية التصويب، بعدها وضع ذقنه على العود الخشبي الذي يُشكل مؤخرة البندق، ثم أغمض عينه اليُسرى

وباليُمنى حدد هدفه، وقبل أن يُطلق تحول الطائر الذي أمامه لامرأة عارية، ذات شعر طويل، لم يظهر له وجهها لأنها كانتْ تعطيه ظهرها.. فقط رأى شعرها الكثيف الناعم، ونهاية ظهرها الذي لم يصله شعرها، ويديها وجزء من ساقيها. لم تكن تشبه نساء القرية؛ لأن بشرتها بيضاء بضة.

ثقل رأسه وأحس بأنه سوف يفقد وعيه، أصابه الفزع، وتخدَّر جسده من هول المُفاجئة، عندها أغمض عينيه ورفع رأسه ببطء، ولَّما فتحهما وجد طائر البجع قابعاً في مكانه، ولا أثر للمرأة التي رآها قبل قليل، تلفَّت في كل الاتجاهات دون أن يجد لها أثراً، وبعد مُدة هدأت مخاوفه، وأخبر نفسه بأن خياله هو من صوَّر له هذه المرأة لكنها في الحقيقة ليس لها وجود، وعاود التصويب من جديد، ومثلما حدث في المرة الأولى.. ما أن حاول الضغط على الزناد حتى تحول الطائر الذي أمامه لشاة بيضاء ذات ضرع ممتلئ باللبن؛ عندها ازدادتْ دقات قلبه، وارتجف جسده، فرمى البُندق بعيداً عنه وقام فزعاً مُهرولاً نحو القرية. لقد تأكد تماماً من أن الذي أمامه هو جِنْيّ.

لم يتركه الطائر وشأنه، إنما صاحبه حتى مدخل القرية، وفي كل مرة ينظر **مهند** خلفه يجده قريباً منه ويراه في شكل مُختلف؛ ففي البدء عندما نظر حلفه وجده على بُعد عشرة أمتار منه وقد تحول لسرب من طيور القمري، ثم بعدها اتخذ شكل عمه **عبد القادر**، وبعد ذلك اتخذ شكل حبيبته السابِقة **ملاذ**، وأخيراً قبل أن يختفي من خلفه اتخذ شكل صديقه **موسى المجنون**.

وصل **مهند** المنزل مضطرب الأنفاس، مُرتعش الأطراف، يتملَّكه الرُعب، وحالاً تداعى جسده وبدأ يرتجف من شدة البرد ومن الحُمى المُفاجئة التي أصابته.

لم تراهُ **والدته** عندما دخل، واختبأ سريعاً داخل إحدى الغُرف بعد أن تدثَّر بغطاء ثقيل.

حاول أن يُغمض عينيه لكنه لم يستطع لأنه كان يرى الطائر والأشكال التي تحول إليها كلما فعل ذلك، وبقي على هذه الحال إلى أن انتصف الليل، عندها هدأ اضطرابه قليلاً، غلبه النعاس، ونام.

(٧)

على التلة العالية وقف **موسى** رِفقة **ملاذ**، كانا يُمسكان يديّ بعضهما، ومن بعيد أتى **مهند** مُهرولاً ويصيح لحبيبته أن تبتعد عن هذا **المجنون**، لأنه كان يعي جيداً ما ينويان فعله. نظرتْ **ملاذ** نحوه بعينين رِخوتين ناعستين، ووجه جامِد خال من أي تعبير، لكنه سُرعان ما انحاز لإحدى الجوانب بعدما تحرَّكت شِفاهها مُظهرة ابتسامة عذبة، ثم انقادتْ باستسلام ورضى **لموسى** الذي تقدم نحو البُحيرة وجرها خلفه، لم يكن **مهند** يهرول بالسرعة الكافية التي تمكنه من إدراكهما، لذلك عجز عن الامساك بهما، ومنعهما. على الشط تجرَّدت **ملاذ** من كل قِطعة كانت تغطي جسدها، وتلك كانتْ المرة الأولى التي ينظر فيها **مهند** لفاتنها، فعل **موسى** المثل، ثم غاصا بأرجلهما العارية في الماء، وكأن البُحيرة كانت في انتظار هذين الجسدين الشهيين لتروي ظمأها، فقد ازداد اضطراب أمواجها وهي تُعانق جسديهما وتدعوهما للغوص فيها أكثر، وبكل سرور لبَّيا الدعوة وتوغَّلا في الماء، تاركين إياه يُقبل أقدامهما، ساقيهما، بطنهما، صدرهما، شِفاههما، أنفهما، عينيهما، وفروة رأسيهما.

وقف **مُهند** على الشاطئ، يُتابع ما تفعله حبيبته وصديقه، ولم يستطع الدخول للماء الذي كشَّر أنيابه في وجهه وكأنه يتوعده بالغرق إن تجرأ وتقدَّم.

وبعدما اغتسل **ملاذ وموسى**، وقفا من جديد، أمسكا يديّ بعضهما -وقد استطال شعر **موسى**، وازداد حجم جسمه، وبرزت عضلاته-، ومشى الاثنان نحو الأعمق حيث الجزيرة.

كانتْ الرؤية واضحة لـ**مهند** الذي يُتابع هذا الأمر بتوتر وخوف، إذ ولأول مرة يُدرك بأن **موسى** له يد في كل من يختفي من أهل القرية، وأنه مصدر كل هذه اللعنات التي حلتْ عليها، وهو من سرق خيراتها من الطيور كي تحتكرها البُحيرة.

على الجزيرة كانتْ **الساحِرة** في انتظارهما، ووقفتْ **ملاذ** أمامها صامتة. تأملتها **الساحِرة** من رأسها حتى قدميها، تحسستْ بيدها تفاصيل جسد **ملاذ** البض، وابتسمتْ بإعجاب، بعد ذلك نظرت إلى جبينها، ثم وضعتْ كف يدها اليُمنى عليه وقالت بعض الكلام. حالاً.. ومثل لوح من الزجاج يتم رميه على حجرٍ صلب فيتناثر لمئات القِطع الصغيرة، انفجر جسد **ملاذ** مُتحوِّلاً لمئات من العصافير الصغيرة، التي ملأتْ فضاء

البُحيرة بالزقزقة، وحلَّقت عائدة نحو القرية، مرَّتْ سريعاً فوق **مُهند**، وقد تابعها وهي تحط فوق أغصان أشجار النيم المُنتشرة في شوارع القرية.

وهو على الشط رأى صبياً يُمسك حجراً ويمشي منحني الظهر مُحاولاً الاختباء حتى يقترب من الشجرة لقتل إحدى تلك العصافير. انزعج وامتلأ غضباً من هذا الشقي، ثم هرول نحوه وهو يصيح له بأن يكف عن ذلك، موضحاً له بأن تلك العصافير هي حبيبة قلبه **ملاذ**. لم يسمعه الصبي، وقذف حجره الذي قتل واحدة. فتناولها بسعادة وجرى نحو منزلهم ليقوم بشوائها.

لم يتمالك **مهند** نفسه وهو يرى جزءاً من جسد محبوبته تُنتهك حُرمته، وبدأ يبكي بحُرقة لأنه عجز عن أن يصد هذا الصبي، ولأن فِعل الصبي آله وآذى روحه فقد صار يضرب بيديه الأرض دون وعي منه إلى أن أدماهم. بعدها أحسَّ بأن أحدهم يضرب على رجليه، ولَّما أفاق وجد **والدته** تقف فوق سريره، وهي تتمتم: **"بسم الله، بسم الله. أي كابوس هذا الذي جعلك تبكي أثناء نومك!"**.

نظر لها مُستغرباً، وتلفَّتَ حوله؛ إنه في منزلهم، وكل ذلك كان حُلماً. تابع شِفاه **والدته** وهي تتحدث معه، وبعد مُدة استطاع سماع ما تقوله، وحالاً تذكر الكلام الذي قالته **الساحِرة لملاذ**، فقد سمعها تقول: **"هيا عودي لأصلك"**.

(٨)

خرج **مهند** من منزلهم صباحاً وهو يُفكِّر فيما قالته **الساحِرة**، وفي أنه -ولأول مرة- قد رأى شكلها واضحاً، وإن كان في الحلم، وهذا شيء لم يسبقه عليه أحد، إذ ليس هناك من أهل القرية من رأى شكلها الحقيقي، فقط يتناقلون أخبارها ويؤمنون بوجودها، لكنهم لم يروها قط. توقف أسفل واحدة من الأشجار التي رآها في منامه، وحالاً خرجت من بين أغصانها العديد من العصافير بعد اقترابه منها وحلقت مبتعدة. تابعها بنظره مُستغرباً، ينتابه بعض الخوف، لأنها كانت تشبه العصافير التي رآها في منامه، وسأل نفسه إذا ما كانتْ **ملاذ** حقاً تنتمي لفصيلة العصافير، وأنها قد تكون أتت لجنس البشر بالخطأ! **"المجنون، المجنون أين أنت"**. قالها بصوتٍ عالٍ عندما تذكَّر أنه قد رآه لمَّا قابل الجني المُنتحل هيئة طائر البجع،

وفي المنام أيضاً. "**لا بُدَّ وأن تكون لك يدٌ في هذا الذي يحصل معي أيها الصديق الغامض المليء بالمصائب، فأنا لم أعرف غرائب الأشياء إلا عندما بدأتُ أجلس معك وأستمع لحديثك**". وخرج من القرية قاصداً التلة.

لم يجد صديقه هُناك، تذكَّر بأن الوقتْ صباحاً، وعليه أن يأتيه مساءً إن أراد التقاءه في هذا المكان.

رجع بعدها إلى القرية وبحث عنه في شوارعها علَّه يُصادفه، لكنه لم يجد له أثراً، ودون أن يُخطط لذلك وجد نفسه قُرب دكان **حمد**، فاتجه نحوه، وإن كان موقناً بأنه سوف يفتح له جُرح قلبه الذي لم ولن يلتئم أبداً. وجده مُستلقياً في الخارج على السرير الصغير المُستطيل، وقبل أن يصله اعتدل حتى يسمح له بالجلوس قُربه.

- يبدو أن البَرَكة قد زارتنا اليوم.
- لا تُبالغ يا صديقي، فما أنا إلا رجلٌ عادي التهم اليأس شبابه.
- لم يلتهمك اليأس، إنما التهمتك **ملاذ** حين جعلتَ مصيرك مُرتبط بها!

"ها قد بدأنا". قالها في سِره وردَّ عليه:

- لماذا أنت مُتمسكٌ بها هكذا، في حين أنني قد نسيتها منذ أمدٍ طويل.
- أنت لم تنساها. أيضاً، أنا لستُ مُتمسكاً ولا أهتم بها أصلاً، ولو لم تكن قد آذتك وحولتك لهذا الكائن الذي لا أعرفه لما ذكرتها على لساني، لكنني لا أرضى أن تُسيطر عليك هذه الملعونة، أُريدك أن تتحرر منها، وأن يعود صديقي **مهند** الذي أعرفه.
- صديقك لم يذهب لأي مكان، وها هو واقف أمامك، لكنك أنت الذي لا تود أن تراه.
- أنا أعرف صديقي جيداً، بل وأتحدى كل أهل القرية في أن يعرفه أحد ما أكثر مني. عموماً دعنا من هذا الكلام الذي يبدو أنه سوف يؤذيك فقط ويؤذيني؛ لأنك لا تود مُساعدة نفسك. كيف حالك، لقد اشتقت إليك حقاً.
- بخير الحمد لله، أنا أيضاً اشتقت إليك، ولجلساتنا ونصب الشِراك للطيور في الأيام الخوالي.

ورددا معاً بحنين وألم:

- آه... يا لها من أيام!

وسرح كِلاهما بعيداً مُستحضران تلك الأيام الغابِرة.

ما لم يكن يخطر ببال أي أحدٍ منهما، والتي سوف تفتضح كلام **مُهند** قبل قليل وتُعريه تماماً من الصِدق، هو المُفاجئة الآتية نحوهما، المرأة التي وقفت أمامهما بكل شموخ، وكبرياء -وإن كان كل شيء في داخلها يصرخ شوقاً ولهفة-، نظرتْ في وجه **مهند** الذي اكفهر وشاخ -حالاً- مئات السنين، ثم حولتْ نظرها إلى **حمد** وهي تطلب منه أن يزن لها رطلاً من السُكَّر. لم يُحرك أي منهما ساكِناً، إنما ظلَّا صامتين يُحملقان في وجهها بذهول وكأنهما غير مُصدقين حقيقة وجودها أمامهما، فتركتهما **ملاذ** ودخلتْ الدكان.

(٩)

ازدرد **حمد** ريقه عُدة مرات وهو ينظر إلى صديقه المبهوت الذي حلَّق بعيداً بأفكاره، ثم تمالك نفسه ودخل الدكان كي يُلبي طلبها.

بعد لحظات خرجتْ **ملاذ**، اقتربت من **مُهند** وبدت كأنها تود أن تقول له شيء ما، لكنها أحجمت عن ذلك، وواصلت طريقها تمشي بطريقة مُثيرة جعلت الدم يفور داخل شرايين

مهند ويتذكر الأيام الخوالي؛ أيامهما تحت شجرة الهجليج، أيام كانتْ ترتمي في أحضانه مُستسلمة له كي يلتهم شِفاهها.

عندما خرج **حمد** وجلس قُرب صديقه لم يُحرِّك أيا منهما شِفاهه ليقول شيئاً، فقد كان وقع المُفاجأة كبيراً عليهما، هما اللذان لم يرياها منذ أكثر من عامين؛ أي منذ زواجها.

بعد دقائق ثقيلة مرَّتْ عليهما قال **حمد**:

- من أي السماوات هبطت هذه الملعونة، فقد كاد قلبي أن يتوقف؟

لم يُبد صديقه أي ردة فعل، لأن قلبه كان قد توقف فعلاً. نظر له **حمد** فوجده شارد الذهن، زائغ الأعين، ويديه ترتجفان بقوة.

صمت حمد احتراماً لمشاعر صديقه. هو الذي يعلم جيداً حُبه الشديد وولعه بهذه الفتاة رغم الطعنات التي سددتها له.

آثر **مهند** الصمت بعد ذلك ولم ينطق بكلمة واحدة حتى مُغادرته دكان صديقه، ومثلما اعتاد فقد خرج للخلاء، ودونما أي تفكير وجد نفسه جالساً تحت شجرة الهجليج، ثم بدأ يبكي

بأعلى صوته ويضرب بيديه جزع الشجرة حتى أدماهما. تناهى لأُذنيه أصوات عصافير في أعلى الشجرة، فتذكر الحلم، وكفَّ عن إيذاء يديه، ثم استلقى بظهره على الأرض ناظِراً للأعلى باحثاً عن العصافير. تتبع مصدر صوتها وسريعاً التقطتها عيناه، كانت سرباً كاملاً متوزع على الأغصان. وشرد بخياله بعيداً مُتخيلاً أن **ملاذ** قد عادتْ لأصلها وتحولت إلى هذه العصافير التي تطرب أُذنيه بالزقزقة. بدت له وهي في هذه الهيئة الجديدة أنها غير قادرة على إلام قلبه أبداً، وبأنها ألطف بكثير من تلك التي في واقعه. "**آه يا ملاذ، يا نهر الجمال الخالد، النهر الذي خلَّد العذاب في قلبي، وجعلني من زُمرة المنبوذين الذين حقَّ عليهم العذاب والتخليد في الجحيم. لو كُنتُ أعرف أن هذا ما سيحدث لي لما شرِبتُ منه أبداً. يا لي من مُغفل وساذج!**".

سالت الدمعات حتى بللت أُذنيه وهو يتذكر كيف أنها قد أرسلت أُختها الصُغرى كي تخبره بأنها قد تركته، وبأنها لا تُريد حُبه، وعليه نسيانها وتركها لحال سبيلها بعد الآن. جُن جنونه لسماعه هذا الكلام، ولم يصدقه إلا عندما سمع بعد أسبوع من ذلك بأن رجلاً غني ووسيم من قرية أُخرى قد عقد قرانه

عليها، لأنه صديق **والدها**، وأن العُرس سوف يكون بعد أسبوعين من ذلك.

عاش قلِقاً، مُنزعجاً، شارد الذهن، وغير مُصدق طوال الفترة التي سبقت زواجها، ويوم العُرس خرج إلى الخلاء وظل طوال اليوم يبكي، وتوالى بكاءه للأيام التي تلتْ ذلك. بعدها آنس الوحدة، وكثُر خروجه من القرية مُستصحباً بندقيته، وقلَّص تواصله مع أهل القرية مُكتفياً فقط بصديقيه **حمد وموسى**.

عندما عاد من شروده، كان سرب العصافير قد غادر الشجرة. نظر نحو موضع طائر البجع الذي أرهبه بالأمس، ونفض عنه التراب الذي علق بملابسه، ثم اتجه نحو المنزل.

بعد أن غابتْ الشمس، وقبل أن يُحكم الظلام قبضته على بيوتات القرية، سمع صوت البابور الذي مدَّ شوارعها بشرايين النور. وبعد العِشاء خرج قاصداً التلة، لكنه لم يجد صديقه، ولم يجد سبباً منطقياً يجعله يختفي، وهو الذي ليس له سُكنى غير هذا المكان الصغير المكشوف، والذي يُعدُّ موقعاً جيداً للتأمل. انتظره طويلاً، ولمَّا لم يأتِ رجع إلى القرية.

أتى مرة أُخرى ليلة اليوم التالي فوجد صديقه جالساً، ورأى الربابة موضوعة قُربه.

(١٠)

ألقى عليه التحية ثم سأله:

- أين اختفيت البارحة؟
- ذهبتُ لأتقصى من حقيقة أمرٍ ما.
- واااو.

قالها **مهند** متعجباً، وتساءل عن الحقيقة التي يبحث عنها المجانين! أضاف:

- عن أي حقيقة كنت تبحث، ربما أفيدك.

تفرس **موسى** في وجه **مهند**، وقد تذكر ما قالته له **الساحرة** البارحة، ثم قال:

- دعك من هذا، قل لي، كيف حالك.
- أنا بخير، فقط...

لم يقل **موسى** شيئاً وتركه يُكمل.

- فقط بتُ أرى بعض الخيالات والأحلام المُزعجة.

- الخيالات والأحلام هي طريقة الكون للتحدث إلينا، ولفتنا لشيء ما نغفل عن رؤيته.
- لكن ما أراه غير منطقي، ولا يُمكن حدوثه، بل هو من المُستحيلات!
- كل شيء منطقي ووارد الحدوث إذا نظرنا له من زاوية مختلفة. المُستحيل كلمة اخترعها البشر، لكن لا وجود لها في قاموس الكون.
- وما أدراك أنت بقاموس الكون؟

ابتسم **موسى** ولم يُبد جواباً.

- قُل لي، ماذا ترى؟ سأله **موسى**.
- في البدء رأيتُ بجعاً يأخذ عدة هيئات، منها أن رأيتُ امرأة بيضاء البِشرة ذات شعرٍ كثيف، ثم تبدل الطائر مُتخذاً هيئة شاه بيضاء اللون، وبعدها تحول لـ **ملاذ** إن كنتَ تعرفها، ثم في الأخير.. اتخذ شكلك. كما أنني قد حلمت بك البارحة وأنت تمسك بيدِ **ملاذ** وتدخلان البُحيرة، وهُناك تلتقيان **بالساحِرة** التي تضع يدها على جبين **ملاذ** وتقول لها تقول: **"هيا عودي لأصلك"**، فتتحول لعصافير.

- وإلى ماذا لفتك هذا الأمر.
- لم يلفتني لأي شيء.
- إذن أنت ما زلت لا ترى بعد. أزل الغشاوة التي تعمي بصرك.
- ما الذي تقصده بالرؤية؟ أيضاً، أي غشاوة عليّ إزالتها؟ أنا لا أفهمك.
- سوف تفهم. قالها **موسى** وتناول الربابة، ثم بدأ يضرب على أوتارها.

وكأن للأوتار خيوطاً غير مرئية تطلقها وتمسك بها كل من يستمع إليها، أحس **مهند** بنفسه أسيراً لهذه الأنغام التي انسابت وتفجَّرت من بين يدي **موسى**، وبدأ الضجيج الذي بداخله يهدأ، ويهدأ... إلى أن عم السكون كل خلايا جسده. أحسَّ بنفسه وكأنه تخفف من كل الثِقل الذي كان يُثبته على الأرض، وبأنه صار رقيقاً شفافاً. فأغمض عينيه وجعل أنغام الربابة تقود روحه أينما تشاء. رأى نفسه قد تحول لورقة شجرة نيم أسقطتها الرياح من إحدى الأغصان ثم دفعتها أمامها وجابت به أقاصي الأرض ومشارقها.

تماهى **موسى** مع الربابة التي في حِجره، وبدأت أصابعه تضغط على أوتارها وتتبدل بينهم كأنها أرجُل عنكبوت تنسج خيوطها، ازدادت شدة الألحان، وأصابت **مُهند** رعشة جعلت جسده يهتز ويمتلئ بالمشاعر مثل إناء أُغرق في النهر، وسريعاً امتلأ وفاض. ولأن مثل هذه المشاعر جديدة عليه ولأول مرة يحس بها، فإنه بدأ يصيح علَّه يستطيع إفراغ كوبه المتلئ الذي بدأ يؤلمه ويحرق روحه، ولَّما لم يُفلح الأمر رفع يديه عالياً وكأنه يُحاول الطيران وبدأ يدور حول نفسه، ويقفز عالياً بين الحين والآخر. في تلك اللحظة أحسَّ بروحه تطفو في الفضاء الشاسع وكأنه جزء منها.. أو كأنها جزء منه، وأن بقاء أحدهم يعني بقاء الآخر، وفناء أحدهم يعني فناء الآخر...

توقف **موسى** عن ضرب الربابة، فسقط **مهند** على الأرض مُتكوم يُجاهد كي يلتقط أنفاسه، كان مُواجهاً للبُحيرة، فرآها تشع بريقاً وبهاءً ونُضرة، رأى الطيور الكثيرة تمرح، وسمِع أصواتها وهي تتضاحك فيما بينها، ثم وقع نظره على الكائن الأُنثوي الذي يسبح قُربها، في البدء كان تعطيه ظهرها ويرى فقط شعرها الغزير مثلما حدث آخر مرة قُرب شجرة الهجليج، وبينما هو ينظر نحوها مُجهد البدن، مُضطرب الأنفاس، إذ بها

تلتفت نحوه وتنظر إليه، وظهرت له ملامحها واضحة؛ عيونها الداكنة السواد، حواجبها المُتصلة فيما بينها، خدودها الناعمة، أنفها الطويل المُدبب، فمها الرقيق، وبشرتها الناعمة البضة. وكان في هذه اللحظة قد نسي حُلمه حينما رآها وهي تحول **ملاذ** لمئات من العصافير. تمتم: **"يا إلهي، هل أنا في الجنة، والتي أمامي هي إحدى الحور العين؟"**. نظر **لموسى** علَّه يُجيبه على تساؤلاته لكنَّ الأخير لزم الصمتْ. نقل بصره مرة أُخرى نحو المرأة، ونزل بعيونه للأسفل وهو يتفرس في تفاصيلها، فرأى عنقها الطويل، صدرها النافر الشهي، ووسطها المُمتلئ... أما باقي جسدها فكان يغمره الماء. تمتم مرة أُخرى: **"أين أنا يا موسى؟"**. لم يهتم بالإجابة التي لم تأتِه، وتابع يدها التي تحركت ببطء نحو فمها، قبَّلت كفها ثم بسطتها أمامها، ومثلما كان يصطاد الطيور فيصوب بدقة نحوها حتى لا يُخطئها، صوَّبتْ المرأة عليه بأصابعها، ثم نفختْ على كفها -في الموضع الذي طبعت عليه القُبلة-، لم تُخطئ هدفها، وأحس بطعم شِفاهها في فمه، كان لذيذاً، أحلى من كل شيء ذاقه قبل الآن، وقد كان مفعوله أقوى من أوتار صديقه؛ فلم تتحمله روحه ولا قلبه، وبدأ جسده يرتجف، انحبست أنفاسه وظلَّ يرفس

برجليه كالمذبوح. لم يقربه **موسى**، وانتظره حتى هدأت حركته، ثم قام إليه وحمله على كتفه، وقف على التلة وقال مُعاتِباً حبيبته:

- لم يكن عليكِ فِعل هذا؛ كان من المُمكن أن يفقد حياته!
- لا تقلق، لن يُصيبه شيء؛ فهو ابني.
- سوف نرى! قالها واتجه نحو القرية يحمل ابنه.

(١١)

عندما اختفى **موسى** ليلة البارحِة التقى **بحبيبته**، وسألها عن الفتى الذي في القرية والذي يجلس معه بين الحين والآخر إن كان هذا هو ابنهم؛ لأن الشبه بينه وبينها كبيراً، وتلك الرؤى التي تأتيه لم تكن لتحدث له لو لم يكن له صِلة بها. في البدء آثرت الصمت، لكنه ألحَّ عليها كي تبوح له بالحقيقة. وبصوتٍ خافِتْ أجابته بنعم، ثم أضافتْ بعد مُدَّة:

- عندما التقينا أول مرة، كانتْ الطيور تحيط بنا وتُحَلِّق فوقنا، وفي ذات الوقت كانت تحيط بالزوجين -الذين سوف يكونان لاحقاً أبوين للفتى- دون أن يشعُرا بذلك، لأن كل منهم كان بُعد مختلف؛ أقصد أن

الطيور كانتْ في بُعُد والزوجين في بُعُد آخر. وفي دورانهم ذاك استطاعوا فتح بوابة تصل بين رحمي ورحم تلك المرأة، وعندما قذفتَ أنتَ بذورك بداخلي، كانتْ قد قُذفتْ داخل رحم تلك المرأة أيضاً، فتشاركتُ أنا وهي - في اللحظة ذاتها- حمل الجنين، وتعذى على دمائي ودمائها معاً. وعندما حانتْ موعد ولادته أحسستُ أنا أيضاً بآلام المخاض، لكنَّ الجنين خرج منها فقط. ثم بعد ذلك اتخذتُ هيئة شاة بيضاء وذهبتُ إليه كي أُرضعه لأنني كنتُ أعلم بأنه سوف يرفض ثدي تلك المرأة، ولمَّا كبُر تركته وشأنه، بينما كنت أُراقب تحركاته.

سكتتْ قليلاً، وامتلأت عينيها بالدمع، ثم واصلتْ:

- لكم وددتُ وضعه في أحضاني وضمَّه عليّ، وددتُ أن أسمعه يقول أمي. كنتُ أريده أن ينشأ معي وأرعاه مثلما أُرعى هذه الطيور، لكنَّ القدر حتَّم عليَّ فُراقه، وقد آذاني أكثر عندما مشى خلف خُطى عمه، وأصبح يصطاد الطيور التي كُلِفتُ برعايتها ونذرتُ عمري لها. لم أشأ أن أتدخل في حياته، وأردتُ من دمي الذي يجري في عروقه أن يقوده إليَّ؛ لكنه للأسف لم يفعل،

وأحسستُ بأنه سوف يضيع مني إن لم أريه الطريق.. وقد حاولتُ ذلك لعله ينجح.

- ولِمَ لم تُخبريني؟ أنا الذي كنتُ أجلس معه يومياً، لكنني جاهل بكل هذا الأمر، ولم أعِ قط بأنني في الحقيقة أُجالس ابني.
- يبدو أنني أخطأتُ عندما قلتُ بأن دمي تنكَّر لي ولم يجلبه، بينما هو السبب الذي جعله يجلس معك، ويأنس لحديثك. أنتَ دون غيرك!

لم يُعلِّق **موسى** على كلامها، وامتلأ بمشاعر الكُره تجاهها، لكنها تلاشتْ سريعاً وحلَّت محلها الفرحة لأنه الآن قد صار أباً. لم يتمالك نفسه وبدأ يبكي. وفي خرق واضح للقوانين التي وضعتها له، اقتربتْ منه وضمَّته نحوها. اختبأ **موسى** كالطفل الرضيع داخل صدرها، وطلَّت تُربِّت على كتفه إلى أن هدأ، لم يود أن يُفارقها لو لم ترمقه بنظرة عِتاب لأنهما خالفا القوانين. عندها تركها، ورجع إلى الشاطئ ممتلئ سعادة وسرورا.

***

لذلك عندما حمل **مهند** على كتفه عائداً به نحو القرية شعر بالفخر لأول مرة، وبالزهو.. فها هو فلذة كبده بين يديه. نقر

باب المنزل منتصف الليل، وهذا الأمر يُعَدُّ نذير شؤم لأهل القرية، لأنه لن يتجرأ أي أحد أن ينقز بابك مالم تقع كارثة ما، فأتتْ **الأُم** -التي لم يغمض لها جفن تنتظر قدوم **ابنها**- فزعة، وتوقعت بأن أمراً سيئاً قد حلَّ به. وجدتْ **موسى المجنون** يحمل **ابنها**، فصاحتْ فيه مُعنِّفة إياه:

- أُتركه أيها المعتوه، ماذا فعلت به؟

ارتبك **موسى**، وتلعثم وهو يقول:

- لـ...لـ...م لم أفعل له شيئاً، وجدته نائماً خارج القرية، فحملته إلى هنا.

أخذته **والدته** منه، وأقفلت الباب في وجهه. ومن خلف الباب أتاهُ صوتها المتوعِّد:

- إن حدث له مكروه سوف أقتلك.

ضحك على كلامها، وغادر القرية مُتجهاً صوب التلة.

(١٢)

صباح اليوم الذي تلا الحادِثة لم يستطع **مُهند** مفارقة سريرة؛ لأنه كان يُعاني من نوبات الحُمى التي غرستْ مخالبها في

جسده الهش، كما أنه عانى من الهلاوس التي كانتْ تظهر له كلما أغمض عينيه.

وما حدث له على التلة اختبأ بعيداً في ذاكرته، لم يظهر له واضحاً، إنما في شكل ضبابي ومشاهد مُتفرقة، كأنه لم يحدث البتة، وكأنه هلوسة أو رؤى مثل التي تأتيه في منامه عادةً.

في ليلته الأولى، وهو طريح الفِراش رأى نفسه يجلس ذليلاً صاغِراً أمام رجل ضخم يفوق حجمه مئات المرات، مفتول العضلات، له ملامح صديقه **موسى**، يحمل قضيباً حديدياً. يرفع الرجل القضيب عالياً ويهوي به على رأسه، وبدل أن يتفتت ويتهشم جراء الضربة، فإنه ينفلق لنصفين. داخل رأسه رأى حديقة غنَّاء، مليئة بالورود الحمراء والصفراء، يجري تحتها ماء عذب، وسمِع زقزقة عصافير تملأ فضاء المكان، ولَّما أرهف السمع وجد زقزقتها تشبه صوت **ملاذ**؛ إنها ذات العذوبة والرِّقة التي كانتْ تُحدِّثه بها، بل وأبعد من ذلك، كانتْ تلك العصافير هي ذاتها التي رآها في الحلم حين حولت **الساحِرة**

محبوبته. وامتلأ دهشة وسروراً لأنه يحمل كل تلك الحيوات داخل تجويف رأسه.

في ليلته الثانية تكرر المشهد: جلس صاغراً يرتجف وجلاً أسفل جسد الرجل الضخم، وهوى الأخير بالقضيب الحديدي على رأسه، وحين انفلق رأى بداخله بويضة مُخصَّبة داخل رحم امرأة لا يعرفها، ثم صارت البويضة مضغة، وكبرت المُضغة حتى صارت جنيناً. إنه هو هذا الحنين، **مُهند** بشحمه ولحمه. بعدها تلاشى المشهد وحل محله بيوتات القرية، ثم رأى منزلهم، ورأى شاة بيضاء تُرضعه وهو طفل صغير في المهد. تهرب الشاة ما أن يرتوي من حليبها، تخرج من القرية وتدخل النيل.

وفي ليلته الثالثة حين انفلق رأسه رأى البُحيرة مليئة بأسراب طيور الوزين والبجع والقُمري، وقد بدا واضحاً له بأن هذه الطيور هي في الأصل أُناساً من أهل القرية وغيرهم من الذين حاولوا الاصطياد في البُحيرة. وحالاً تذكر -وقد اختفى الخط الفاصل بين الأحلام والحقيقة واختلطا مع بعضهما- يوم اصطاد ثلاثة من طيور القمري، وتذكر الجوقة التي كانتْ تصرخ

في سماء البُحيرة، فدقَّق النظر في الطيور، ومن بينها رأى عمه **عبد القادر**.

***

بعد ثلاث ليالٍ، والكوابيس تعكِّر صفو نومه، لم يقوَ على ملازمة الفراش أكثر، وغادره رغم أن جسده لم يستعد عافيته بعد. أرَّقته الرؤى، ولم يهدأ له بال وهو يستحضرها مُتفكراً ومُتسائلاً في مدلولاتها، ولم يرى بداً من الرجوع لصديقه الوحيد الذي يستطيع مدَّه بالتفاسير المناسبة.

منذ العصر توجه نحو التلة وجلس عليها مُنتظراً ظهور **موسى**. وما أن غابت الشمس وأحكم الظلام قبضته على الأشياء أتى **موسى** -الذي لم يُخيِّب ظنَّه- وجلس قُربه دون أن يشعر به، لأنه كان شارد الذهن، يتأمل البُحيرة التي بدت له ك كتلة ضخمة صماء غير ظاهرة الملامح.

- مرحباً بـ ابني الذي سرقه القدر مني.

جفل **مهند** وفاجئه حضور صديقه الذي لم يحس به.

- ابنك الذي سرقه القدر؟ سأله مُستفسراً.

بعجالة ودون روية أجابه:

- نعم، أنت ابني، وابن الساحِرة. والرؤى التي تظهر لك في منامك خير دليل.
- ...
- شرح هذا الأمر سيطول، لكن ليس ورائي ما يشغل بالي، وسوف أحكي لك كل شيء. هل أنت مُستعد؟

أومأ **مهند** لا إرادياً. وبدأ **موسى** مُندفعاً يكشف له تفاصيل حياته التي كانت تعيش في الظِل.

العودة إلى الجذور

(١)

مُتأبطاً بُندقيته التي نخر الصدأ حديدها كان **مُهند** يجوب المشاريع بحثاً عن الطيور، التي يبدو أنها قد هجرتْ هذا المكان مُنذ أمدٍ طويل، فالأرض جدباء جراء حر الصيف، ولا يظهر شيء للعين كلما امتد البصر عدا السراب، لكنه ظلَّ ينتظر ظهورها ويصرُّ على أنها سوف تأتي من جديد مثلما كانتْ تفعل قديماً.

كل من يمُر قُربه أو يراه يتأسف لحاله، ولصابه، ويدعو الله أن يشفيه؛ فمنذ عامٍ مضى أصاب عقله عطبٌ ما، ومن يومها لم يعد **مهند** الذي تعرفه القرية. ابتدأ الأمر عندما شُوهِد في أكثر من موضع وهو جالس أو يمشي وحيداً يُكلم أشخاصاً غير مرئيين، كما أنه لم يعد يهتم بمظهره؛ فاستطال شعره وأظافِره، وبليتْ ملابسه وتمزَّقتْ دون أن يقوم بتغييرها وخلعها عن جسده.

كان يهرب من **والدته** التي تُحاول جاهدة الاهتمام به، وجعله يخرج بطريقة تليق بابنها الوسيم حسُن المظهر، لكنها لم تستطع وأعياها ذلك، فاستسلمتْ للأمر تاركة إياه يفعل ما

يشاء؛ لأنه كُلما رأى منها اهتماماً ما، يُعاقبها بأن يخرج من البيت ولا يعود إلا بعد مرور عُدة أيام، وخلال هذه الأيام تكون هي قد بحثتْ عنه في الأماكن كلها التي كان يرتادها، كما أنها تظل طوال فترة غيابه تبكي، لذلك.. عندما فهمتْ الأمر تركته وشأنه، وغضَّت الطرف عن هيئته، إذ يكفيها أن تراه مساء نائماً فوق سريره.

لم يستسلم للإرهاق الذي يُصيب مفاصله، ولا العطش الذي يُجفف حلقه؛ وظلَّ دائم السعي وراء الطيور، وكلما رأى واحدة -حتى وإن كانتْ من العصافير التي لم يكن يصطادها قبلاً- فإنه يجلس على الأرض، يختبئ ويزحف حتى يقترب منها، ثم يأخذ وضع التصويب، ولَّما يتأكد من أنها في مرماه، يضغط على الزناد، ويُصدر من فمه صوتاً شبيهاً بصوت القذيفة: "**بووووو**". فيجفل الطير ويبتعد، بينما يقف هو ضاحِكاً، سعيداً بهذه المُحاولة.

ذات صباح صادف سرباً من طيور القمري عددهم أربعة عشر، كانتْ تهرول يمنةً ويُسرى، وتُبعثر الثرى برجليها بحثاً عن حبوب الذُرة، فاختبأ سريعاً في إحدى الجداول العميقة، وزحف نحوها حتى اقترب منها، ثم ثبَّتَ بُندقيته على كتفه، وصوَّب نحوها. كان في مرماه ثلاثة منهن، بعدها أطلق صوته مُحاكياً صوت الطلقة. لم يطر القمري. وفاجأه الأمر، فوقف مُتعجباً، واقترب منهن أكثر لعلهن يجفلن عند رؤيته ويُحلقن بعيداً لكنهن لم يتزحزحن، إنما توقفن جميعاً عن الأكل ونظرن له. خفق قلبه بشدة لهذه النظرات المُفاجئة وانتابه الخوف، حاول الهرب، لكنَّ واحدة من الطيور وقعتْ على الأرض وبدأ جسدها يرتعش، كأن روحها سوف تفارقها، وحالاً تبعها بقية السرب، فاندهش منهن وهو الذي لم يمسهن بأي شيء، لأن بندقيته فارغة لا تحمل أي طلقة بداخلها. سأل نفسه: **"هل صدقن الصوت الذي أطلقته بفمي وظننه قذيفة؟"**. بعدها تفحصَّ بندقيته، ونظر فيها ملياً لعله يجد سبباً منطقياً يدل على أنها أصابت الطيور. وبعد فترة وجيزة توقفت الطيور عن الحركة، وبَدَيْنَ له كأنهن فارقن الحياة. فاقترب منهن بحذر، وامتدت يده كي تمسك واحدة، لكنه أجفل عندما بدأت ترتعش مرة

أُخرى، وتبعها البقية كأنهن كُن ينتظرن إشارة القائد، وبينما هو يحملق فيهن دون أن يعي ما يحدث أمامه، بدأت أجساد الطيور تتقارب من بعضها بعضاً.. ثم التصقن، وكونَّ جسداً واحداً، وبدأتْ ملامحهن تتغير شيئاً فشيئاً إلى أن اتخذن هيئة بشري، كان عمه **عبد القادر**.

مهند الذي شُل جسده لرؤيته هذا المشهد الغرائبي، وقع صريعاً وبدأ يرفس برجليه ويُجاهد كي يلتقط أنفاسه، إذ لم يتحمل قلبه ولا عقله هذا الأمر. وسريعاً احتواه عمه **عبد القار** بين أحضانه، وضع فمه على فم **ابن أخيه** وبدأ يمده بالهواء علَّه يسترد عافيته. وبعد مُدة فتح **مهند** عينيه، رأى **عمه** -الذي هزم الموت وأتى كي يراهُ- ينحني فوقه، ابتسم بوهن، وامتدتْ يده كي تلامس خدود **عمه**.. لكنَّ الأخير تحول إلى أربع عشرة قمرية قبل أن تصله يد **ابن أخيه** وحلَّق مُبتعداً عنه. بينما أُغمي على **مُهند**.

(٢)

ما يجهله أهل القرية هو أن **مهند** اختلَّ توازن عقله في الليلة التي أخبره فيها **موسى** عن حقيقة أمره، وبأنه لم ولن يكون أبداً

ابن المرأة والرجل الذَيْن يعرفهما، بل هو ابنه، ومن صلبه، وابن الساحِرة التي شكَّلتْ هوساً ورُعباً لأهل القرية، وقد كان نُطفة ثم علقة داخل رحمها، وبأن دمها يجري في جسده، وإلا لَمَا انتابته هذه الرؤى، ولَمَا اعترضتْ طريقه! فالدم دائماً يقود صاحبه لأصله، وها هو يُعطيه الإشارات ويرسم له المسار كي يهتدي إلى الطريق الصحيح.

تجمَّدتْ أطراف **مهند** وهو يسمع هذا الكلام، وازدادت دقات قلبه. بعدها بدأتْ يداه في الارتعاش والتعرُّق. وقبل أن يفقد أعصابه ويتسرب إلى نفسه حديث المجنون، بدأ يهمس لنفسه: **"لا تُصدق أي كلام يقوله هذا المجنون، إنه كلام مجانين ليس إلَّا... إنه كلام مجانين... كلام مجانين..."**. فهدَّأ قليلاً من روعه وإن كان هُناك صوتاً عميقاً يُخبره بأن هذا الكلام يحمل حُجة قوية، وبأنه الأقرب للصواب، فتلك الرؤى وكل الهلوسات ليس لها تفسيراً آخر غير هذا. لكنه لم يلتفت لهذا الصوت، وأسكته حالاً.

وهو في قمة توتره وانزعاجه صرخ في **صديقه**:

- مُخطئ أنا الذي ظنَّ فيك الخير، مُعتقداً أن أهل القرية يظلمونك في حُكمهم عليك؛ لكنهم صادقين، أنت مجنون وكفى، وكان عليَّ أن أتعامل معك بناءً على هذا الأساس، لكنني قد أخطأتُ هذه المرة.. مثلما أخطأتُ سابقاً حينما وثقتُ بتلك اللعوبة.
- لكنني لم أُخطئ في كلامي، وقد قُلتُ لك الحقيقة.
- تباً لك ولحقيقتك. منذ الآن سوف تفترق طُرقنا، ولا أريد أن أراك بعد الآن.
- أنت ترتكب خطأً فادِحاً يا ابني.
- لا تقول ابني؛ وإلَّا قطعتُ لِسانك.
- سوف أصمت، لكنَّ هذا لن يُغير شيء، وسوف تعود إليَّ مرة ثانية.
- لن أعود لمجنون مثلك.

وغادره مُتجهاً نحو القرية ورأسه يضج بما قيل له. ومن بعيد أتاه صوت **موسى**:

- قارن ملامح وجهك بملامح وجه **الساحِرة** الذي رأيته واضحاً، وسوف تعرف أن كلامي حقيقي.

كانتْ هذه الجُملة الأخيرة هي الضربة القاضية التي أذابتْ كل قناعاته الهشة ومحتها، وفتتْ كل حوائطه التي أقامها سداً منيعاً في وجه هذا الادعاء. إذ توقف في منتصف الطريق وهو يُحاول أن يستحضر صورة **الساحِرة**، ودون وعي منه لمس شِفاههُ، فأحسَّ بطعم القُبلة التي أرسلتها له، وحالاً كما تُمطر السماء بغتة.. أمطرتْ ذاكِرته تفاصيلها؛ لقد بالفعل شبيهة به، أو هو الذي يشبهها؛ عيونه السوداء، حواجه المُتصلة، أنفه الطويل المُدبب، فمه الرقيق، ووجهه الذي يفيض عذوبة وجمالاً. لم تكن هذه ملامح أبويه الذَيْن يعرفهما، وقد أخبرته **والدته** سابقاً بأنه يشبه جِده المتوفي الذي لم يره قط. وحالاً قفز سؤال إلى ذهنه: **"هل كنتُ أشبه جدي حقاً، أم أن هذا ما قيل لي فقط، وأنا صدَّقته؟ مثلما كانتْ ملاذ تقول لي الأكاذيب؟"**. يُجيب لنفسه: **"يا لسذاجتي، فبعد رؤيتي لهذه الساحِرة لم يعُد هُناك شك في أنني أشبهها، وقد رأيتُ ذلك واضحاً. آه يا موسى، أنت بذلك تدعوني كي أُشاركك طاولة الجنون، كيف تُريد من عقلي الصغير المُضطرب أن يتحمل هذا الكم من الهلوسة، ومن الحقائق الصادمة التي قذفتها في وجهي دون أي حساب"**. يصمتْ لحظات، ثم يتساءل مرة

أُخرى بصوتٍ عالٍ: **"هل أسلمتُ بأن كلامه حقيقة، وبدأتُ أُصَدِّقَهُ؟"**. ويُجيب نفسه بصوتٍ أعلى: **"نعم، نعم، فأنا لم أعرف عنه الكذب قط. لكن كيف... كيف يُمكن أن يحدث شيئاً كهذا، شيء أشبه بالمُستحيل، لا بل هو المُستحيل نفسه! لا، لا، لن أُصدقه، هو يريد مني أن أُكَذِّب المنطق، وأُجاريه في لعبته الخيالية هذه. لكن.. أين المنطق في كلِ ما أراه في منامي وصحوي، أين المنطق في أن تتحول ملاذ لعصافير، أين المنطق في أن يتخذ طائر بجع هيئات أشخاص تقاطع طريقي معهم، بل أين المنطق في أن تُرضعني شاة بيضاء؟ اخ يا رأسي، ما هذا التيه الذي أدخلتني فيه أيها المجنون؟ ما هذه الأرض الجدباء المليئة بالشوك التي رميتني فيها؟"**. ولَّما استعصتْ عليه الأسئلة التي لم يجد لها جواباً يروي ظمأه، كان سبيله الوحيد كي يُخفف عن قلبه وروحه هذا الثِقل هو البُكاء، فسال دمعه عزيراً على خدوده.

دخل منزلهم منتصف الليل، واختبأ مثل طفلٍ رضيع داخل سريره، بينما تنهش عقله الأسئلة. في الصباح عندما نادته

والدته، لم يستسغ صوتها أو النظر إليها، تذكَّر كلام **موسى المجنون**، وملامح **الساحِرة**، فتنامى في داخله كُره شديد وغضب تجاهها، وقام من سريره مُهرولاً نحو الخارج دون أن يرد عليها، ولم يتوقف إلا عندما وجد نفسه واقفاً على شاطئ البُحيرة.

(٣)

صباحاً لم تكن حركة الأقدام كثيرة قُرب البُحيرة، بل تكاد تكون معدومة. انتهز **مهند** هذه الفُرصة من عدم تبرص الأعين الفضولية، ونزع عنه ملابسه سريعاً، ثم توغل داخل البُحيرة إلى أن وصل الموضع الذي رأى فيه **الساحِرة** قبل أيام عندما كان تحت تأثير أنغام **موسى**. تخطى أعشاب الطرور الطويلة - مما يعني أنه اختفى عن أنظار من هم بالخارج- ووقف على الجزير الصغيرة التي تمتلئ بالطيور عصراً. تلفَّتْ حوله مُنزعجاً من هذا الهدوء الذي استقبله، لأن كل شيء حوله كان ساكِناً، عدا أصوات حركة أقدامه في الماء. في البدء ناداها بصوتٍ خافتْ: **"أين أنتِ أيتها الساحِرة؟ أين أنتِ؟"**، ثم بدأ صوته يعلو ويعلو. فقد رباطة جأشه، وفي لحظة نسي فيها أين هو،

أو ما هو الأثر الذي سيُسببه فِعله هذا، بدأ يصرخ بأعلى صوته: **"أين أنتِ أيتها الساحِرة؟ أين أنتِ أيتها اللعينة؟ يقول موسى أنكِ أُمي، وأنني أشبهكِ كثيراً، هل هذا صحيح؟ هيا اظهري وأخبريني بالحقيقة"**.

وصل صدى صُراخه إلى القرية، فاستغرب الجميع هذا الأمر، وتهكموا قائلين بأن **الفتى قد أصابه الجنون**، وعلَّق أحدهم قائلاً: **"هذه نتيجة من يجعل الخلاء والوحدة صديقين له"**. وبعد دقائق من الهيجان والصُراخ توقف **مهند**، بعد أن أصابه الإعياء. حينها فقط فكَّر فيما فعله وعلِمَ بأنه اقترف خطأً جسيماً، خطأ لا يُمكن إصلاحه أو التكفير عنه. أيضاً، ليس من الحكمة أن يفعل هكذا لمجرد كلام خُرافي نسجته مُخيلة **المجنون**، كان عليه أن يتريث قليلاً قبل أن يتهور ويُدخل نفسه في هذه الورطة.

رجع مُسرعاً -وقلبه وبطنه يؤلمانه بِشدة- يُمني نفسه بأن يمر هذا الحدث على خير، وأن تكون البُحيرة قد كتمت سِره ولم تفشيه لأهل القرية.

على الشاطئ وجد عدد من الناس قد تجمهروا وينظرون له باستغراب وتوجس، وسمعهم يهمسون **بأنه قد جن**. لم يقوَ أن يقول شيئاً، ومشى خجلاً مُطأطئ الرأس. علا صوت أحدهم وهو يقول ساخِراً:" **كيف لا يجن وهو صديقاً للمجنون؟**"، فضحك الجميع. وعندما دخل القرية وجد الخبر قد انتشر فيها مثل نارٍ في الهشيم، والجميع يتهامسون ما أن يمر قُربهم، فقرر أن يخرج إلى الخلاء ويبتعد عن هذا الضجيج.

لَّما اقترب من شجرة الهجيلج رأى شخصاً جالساً تحتها، وعندما وصل وجده صديقه **موسى**. وكأنه توقع مجيئه، قال له:

- ما فعلته لم يكن أمراً جيداً، فأنت بذلك قد فتحت عليك أبواب الجحيم.
- ما فعلته هو نتاج الأفكار السامة التي زرعتها داخل رأسي.
- لم أزرع أي شيء في رأسك، إنما فقط أخبرتك بالحقيقة.
- وهل ينطق المجانين بالحقائق؟

ضحك **موسى** طويلاً قبل أن يقول:

- الآن صِرنا نتشارك نفس الطاولة يا ابني.

اقشعرَّ جسد **مهند** وزاد خفقان قلبه لسماعه كلمة ابني، فآثر تجاهلها، وأضاف:

- لم ولن نتشارك نفس الطاولة أبداً.
- سوف نرى. خاصة وأنَّ أهل القرية قد أطلقوا عليك حُكمهم، ووضعوك في خانة المجانين.

قالها وقام مُبتعداً عنه متوغلاً في الخلاء. اتكأ **مهند** بظهره على جذع الشجرة، أخذ نَفَساً عميقاً وأطلق زفيراً طويلاً، ثم مدد رجليه على الأرض، وتابع **موسى** بتوتر ويأس إلى أن ابتلعه السراب واختفى عنه. عندها أغمض عينيه وبدأ يقلِّب هذا الوضع الجديد داخل عقله. **"لقد فتحتُ على نفسي أبواب الجحيم بالفعل، تباً. كان عليّ أن أتريث قليلاً وأتحلى بقليلٍ من الحكمة. اخ، يا لطيشي وتهوري، فالآن قد دفنتُ كل شيء حاولتُ جاهداً أن أُحافظ عليه، لقد دفنتُ نفسي القديمة، وسينظر إليَّ الكل بطريقة مُختلفة، سوف ينفرون مني بعد أن كنت أنا الذي ينفر منهم. اخ يا قلبي، يا عقلي، يا ..."**. وبدأ يبكي بصوتٍ عالٍ ويضرب بيديه الأرض.

لم يُغير جلوسه ذاك ولم يتحرك أبداً إلى أن غابتْ الشمس، بعدها قام مُتثاقِلاً يُجرجر خُطاه نحو مرقده. وقد كان **المجنون** مُحقاً عندما قال له بأنهما قد أصبحا يتشاركان نفس المرتبة؛ فكل من مرَّ قُربه كان يهمس له بال... **المجنون**.

(٤)

وصل المنزل مُثقل الكاهل، مُبتئس، مُنقبض القلب، وعقله يضج بالأفكار المُتلاحقة. لم يُكلِّم **والدته**، ولم يود سماع صوتها؛ لأنه أصبح يزيده هماً وحُرقة. خبأ جسده الضئيل داخل السرير، وحاول النوم. نادته **والدته** ما أن رأته إذا ما كان يُريد شيئاً؛ فانزعج من مُناداتها له، وانتفخ صدره غضباً، همَّ أن يصرخ في وجهها، لكنه تمالك نفسه وآثر الصمت كأنه لم يسمعها، ولَّما لم يجبها كررت سؤالها، فصاح فيها:

- لا أُريد شيئاً، فقط اصمتي واتركيني.

الأُم التي وصلتها أحاديث القرية عما آل إليه وضع **ابنها** لم تُصدق كلامهم في البدء، وزجرتْ كل من نقل لها ما حدث واصفة إياهم بأنهم يتوهمون ويخلطون بين شخص آخر وبين **ابنها**، لكنها الآن قد رأت بدايته، فصمتتْ امتثالاً لأمره،

وتخضَّبتْ خدودها بالدمع، ولم تجد العزاء وهدوء القلب إلا حينما لجأت إلى ربها بالدُعاء، فرفعتْ يديها عالياً وبدأت تهمس: **"يا الله، يا قوي، يا حفيظ، احفظ ابني الوحيد وأحطه بحمايتك، ولا تريني فيه ما يؤلم قلبي ويُعذب روحي. اللهم احفظه وابعد عنه كل شرٍ؛ فأنت تعلم أنني لا أملك شيئاً في هذه الدنيا غيره، وقد وهبتُ حياتي لتربيته ورؤيته يكبر وهو قريباً مني. اللهم لا تبعده عني، ولا تبعدني عنه. اللهم احفظه لي، ويسر أمره، وأفرح قلبه. آمين، آمين"**. بهذه العِبارات ظلَّتْ **والدته** تدعي له حتى انتصف الليل، وسرقها النوم وهي جالسة على مُصلاتها قريباً من سرير **ابنها**.

قبل أن تشرق الشمس قام **مهند** من مرقده هلِعاً، وقلبه ينبض بقوة؛ ففي حلمه كانت تُطارده صقور عملاقة تود التهامه. التفت للجسم النائم على الأرض، ولَّما عرِف أنها **والدته** حاول أن يُغطيها، وأن يرفعها ويضعها على السرير، لكنَّ صوتاً داخله أمره بعكس ذلك، ونمى في عقله كلام **المجنون**، فاستشاط غضباً عليها وخرج حالاً تاركاً المنزل دون أن يحدد وجهة معينة.

ظلَّ طوال النهار هائماً في الخلاء، واحمرَّتْ عيناه وتورَّمت من شدة البُكاء. في مساء ذلك اليوم لم يرجع إلى المنزل، ونام في العراء مُفترشاً الأرض ومُلتحفاً السماء. ومن يومها أصبح غير مُبالٍ بما يحدث له، فحياته التي عاشها ها هو يكتشف أنها مُزيفة، ليس هو **مُهند** الذي يعرفه، و**والدته**، القرية، صديقه **حمد**، و**ملاذ**... كلهم مُزيفين. لقد اختفى المعنى الذي كان يربطهم به؛ أي معنى وجوده هو، وبما أنه لم يكُن كما يظن إذن فكل ما يحيط به أيضاً ليس كما يظنه. الشيء الوحيد الذي وجده حقيقياً هو حُبه وممارسته للصيد، فحمل بندقيته على كتفه لتكون رفيقة طريقه الجديد.

(٥)

عندما أفاق **مهند** وفتح عينيه وجد نفسه مُمداً على الأرض في العراء، دون أن يجد أثراً لطيور القمري أو عمه **عبد القادر**. الوقت كان ظُهراً حينها، ولم يستطع التمييز ما إذا كان الأمر حقيقاً أم أن عقله هو الذي خيَّل له كل ذلك، لأن تفاصيل ما حصل له كانتْ تظهر له بصورة ضبابية، وكأنها لم تحدث قبل قليل، غير أن شيئاً ما بداخله أخبره بأن الذي مر به حقيقي

جداً، ولم يُجادل هذا اليقين الذي سيطر عليه، إنما صدقه واستسلم له.

ولأول مرة منذ وقتٍ طويل تذكَّر كلام **المجنون**، وتملَّكَهُ شوقٌ عظيم لرؤيته من جديد والتحدث إليه، لأنه قد فارق رِفقته ما أن دخل في عالمه الموحش هذا، أي قبل عام مضى.

وكأنه كان مُطفأً؛ مثل مِصباح، وظهور **عمه** كان بمثابة المفتاح الذي أناره وأيقظ كل شيء فيه.. قرر أن يترك هذا الذي يفعله، ورمى بُندق الصيد بعيداً عنه. نفض الغبار الذي علِق بملابسه، وراعته هيئته: أظافِره الطويلة، ملابسه الرثة النتنه، جسمه المُتسخ المليء بالتشقُّقات، وشعره الأشعث. لم يُفكر كثيراً واتجه حالاً نحو البُحيرة.

اغتسل بمائها الذي شفى كل الجروح والندوب العالقة بجسمه، وملأهُ قوة ونشاطاً، ولَّما خرج كانتْ تحيط به هالة من الضياء. ارتدى ملابسه القديمة ورائحتها النتنة تكاد تفتك به وتجعله يفقد عقله. الآن فقط أحسَّ بهذه الرائحة الكريهة المُنبعثة منها، فقبل أن يغتسل كانتْ أنفه تألفها ومُتصالحة معها.

جرى نحو منزلهم، وقبل كل شيء ارتدى ملابس جديدة وتعطَّر، ثم رمى ملابسه البالية بعيداً وأحرقها، بعدها قصَّ شعره، وقلَّم أظافِره وسط اندهاش وفرحة عظيمة من **والدته** التي ظلَّتْ تراقب تحركاته منذ أن دخل عليها، ولم يسعها فعل شيء غير البكاء سعادة بعودة محبوبها.

بعدما وُلِدَ من جديد اقترب من **والدته** واحتضنها، ثم قبَّل جبينها ويديها وهو يطلب منها العفو والرضى عنه. اختلطت المشاعر في قلب **الأُم**، وعجز لسانها عن النُطق، فاحتضنته بقوة وهي تبكي وتُقبِّل كل موضع في وجهه.

- أنا آسف يا أُمي، وما مررتُ به لم يكن في وسعي أن أُسيطر عليه، كان شيئاً أكبر مني. أنا آسف على كل القلق والتوتر الذي سببته لكِ. أنا آسف.. أنا آسـ..
- لا عليك يا ابني، المهم أنك قد عُدت، وهذا يكفيني.

وبعد لحظة صمت قصيرة، أضافتْ:

- لا بُدَّ وأنك جائع، انتظر وسوف آتي لك بالأكل.

وقامتْ برشاقة وفرح نحو المطبخ. وكالعادة كان طعامها شهياً لذيذاً، والتهمه بنهم، بينما هي تنظر إليه وتخرج منها أصوات هي خليط من الضحك والبكاء.

بعدما انتهى سألها عن ما الذي حدث في القرية أثناء غيابه وانفصاله عنها، وبدأت تسرد له الأحداث التي وقعتْ في تلك الفترة، آخرها موت **موسى المجنون** قبل أسبوع مضى، وأضافتْ شارحة ما حدث: "**لم يعلم أحد بموته إلا بعد مرور يوم أو يومين على ذلك؛ إذ وجده أحد المارين مُصادفة عندما اقترب من التلة العالية فرأى جسده مُمداً على الأرض، في البدء ظن أن الأمر عادياً، وأن موسى نائماً كما هي عادته، لكنه عندما أمعن النظر فيه رأى الذُباب يحوم حوله، ولما اقترب وجد وجهه شاحِباً مُتيبساً، فعرف بأن الذي يرقد تحته جُثة هامدة**". تألم **مهند** لسماعه هذا الأمر الآن فقط، وهو الذي يُفترض أن يكون أول العارفين به. "**آه يا مُهند يا ناكِر الجميل، فها أنت قد تخليت عن الشخص الوحيد الذي آنس وحدتك، وروى عطش روحك. وحده من كان يتحمل غباءك، لكنك جازيته بالترك والهجران، إلى أن فنيَ جسده ولوَّثه الذُباب. تباً لك أيها الأناني الذي لم يستطع أن يرى أبعد من أصابع قدميه.**

كانت تأتيك التفاسير لكل ما أعجزك فهمه واستعصى عليك حله، إذ يكفي فقط أن تذهب للتلة وتسمع كلاماً يُشفي روحك الثكلى التي أرهقتها أحاديث القرية ونظرتهم الضيقة. آه، آه...". ونزلت الدموع غزيرة من عينيه، فها هو قد فقد صديقاً مُخلصاً، بل و ... أباً آخر.

عصر ذلك اليوم تجول في شوارع القرية بخطوات وئيدة وسط اندهاش الجميع، يتفقد كل شيء يمر قُربه، وفي داخله ممتلئ بالحنين والشوق. فما القرية إلَّا التفاصيل الصغيرة المُترابطة التي تنشأ في هذا الحيِّز المكاني؛ لذا ملأ روحه وقلبه بهذه التفاصيل وتشربها من جديد. مرَّ قُرب منزل **ملاذ**، وتوقف دقائق عله يسمع صوتها لكن ذلك لم يحدث، والتقى بصديقه **حمد** الذي لم يتوقع أبداً هذه الزيارة، وسُرَّ برؤية صديق الطفولة صحيحاً، مُعافى. لم يُطل **مهند** الجلوس معه وإن وعده بأنه سوف يأتيه غداً ويقضي برفقته اليوم كامِلاً، ثم في المساء خرج من القرية قاصداً البُحيرة.

لقد سمع صوتاً داخلياً يُناديه بأن: اقترب. وهو الذي تعلَّم الإنصات للإشارات بالطريقة الصعبة، لم يستنكر أو يُمانع هذا الصوت، إنما انقاد له.

ولَّما دخل الماء ازداد الوهج المُنبعث من جسده، وبرزت عضلاته، استطال شعره وامتلأتْ رجليه بالقوة -بعدما رَبطتْ أصابعه طبقة رقيقة من الجِلد لتكون مثل أرجُل الوزين- ثم اندفع نحو الجزيرة، وقبل أن يصلها رأى الدوامة التي تربط العالمين، وقفز بداخلها.

***

قبل وفاة **موسى** بيوم، وبينما كان يجلس بهدوء على التلة، انتابته مشاعر غريبة لأول مرة يشعر بها، ولأنه يملك حدساً قوياً، استطاع تفسير ماهيتها. نظر إلى الأُفق بأسى، وزفر هواءً حاراً، بعدها نظر إلى المشاريع علَّه يستطيع رؤية طيف **ابنه** الهائم في الخلاء، لكنه لم ير غير الفراغ اللانهائي. وباستسلام تام لقدره اتجه نحو البُحيرة، ومنها عبر الدوامة أطلَّ على عالمه الآخر. هُناك احتضنته محبوبته طويلاً، وقبَّلتْ كل بقعة في

جسده، ثم تمددا وهُم مُتعانقين على الشاطئ، بينما الطيور تحلَّق فوقهما، وضجَّ الفضاء الضيق بصياحها.

في تلك اللحظات تملَّصتْ أرواحهما بهدوء وتحررتْ من سجن الطين الذي كانتْ تُحبس بداخله، ومن ثم جفَّ الطين وتحول الاثنين إلى رماد.

بدأت الطيور الطواف حول ما تبقى منهما وهي تُشكِّل حلقة لولبية مُمتدة للأعلى، واشتدَّ صياحها. وبين الحين كانت والآخر تملأ مناقيرها بماء البُحيرة وتُفرغه على الرماد، وهي تُردد: **"ها قد جاء الحامي الجديد، وآن موعِد ولادته".**

وبعد فترة من تكرارها لهذا النداء اهتز الرماد بعدما ارتوى، ومن تحته أشرقت فتاة في العشرين من عُمرها كأنها البدر؛ بل وأشد حُسناً وبهاءً. بينما ظهر جسد **موسى** ميتاً على التلة.

***

عندما أطلَّ **مهند** على البُحيرة الأُخرى وجد نفسه واقفاً على شطِّها، وبعيداً عنه كانت تقف فتاة في عُمره أو تكبره قليلاً، أصابته الدهشة وفتح فاهه مبهوتاً من عُريها، ومن جسدها

البض المصقول بمهارة عالية، وما أن التقتْ أعينهما حتى اشتعلت النار في جوفه، ازداد خفقان قلبه، وامتلأت شراييه بالدم، ومن بين ساقيه نهض شيأه مُعلناً بذلك صحوته بعد أن غفى طويلاً. تقدم الاثنان نحو بعضهما، وذابتا في حضنٍ دافئ مليء بالحنان. همستْ له: **"حبيبي يا حبيبي، أيُّ طينة تلك التي خُلقْتَ منها! ومن أي السماوات هبطتْ على قلبي! إنك أجمل وأشهى من في هذا الوجود. منذ هذه اللحظة أنا لك وحدك، وأنت لي وحدي. أنت شراعي الذي يجعل قلبي ينبض ويتحرك، وأنت الطاقة التي تمده بالنور. أنت الماء الذي يجعله يُزهر. أنت فراشتي وأنا زهرتك.. وخيراً تفعل إن امتصصت رحيقي"**. ثم التهمت الفتاة شِفاهه بنهم، وامتصَّ رحيقها مثلما طلبتْ منه، وقبل أن يرقصا رقصتهما المُقدسة غطتهما أسراب الطيور، وبدأت تطوف حولهما وهي تصيح: **"ها قد أتى الفلَّاح يحمل البِذرة، وها هو يحفر لها الأرض ويقذفها بداخلها؛ الأرض التي سوف تُسقى من مياه البُحيرة حتى تنمو البِذرة وتكبر"**. وتفرغت الطيور عندما ابتعدت الفتاة عن **مهند**، هرولت أمامه ثم غاصت في الماء، بينما هو واقفٌ

على الشط يُراقب حركتها تحت الماء حتى توارتْ عنه وغابتْ، توارتْ عنه لكنها كانت تحمل منه البذرة في رحمها.

في نهاية تلك الليلة، وقبل أن تشرق الشمس رجع إلى شاطئ بُحيرة قريته، ارتدى ملابسه واتجه نحو منزلهم، دون أن يدري بأن طفلاً جديداً وُلِد في القرية.

النهاية.

كوستي

١٣ يناير ٢٠٢٣